الباب الرابع

الأهوال في الكون يوم القيامة

١ – نفخة الصور

إن الحكمة تقتضي أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض ، ومن كل قربى وآصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم .. (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم) .

هناك يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، لا ينصرهم أحد ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القـــادر الرحيم العطوف الذين خرجوا من يده – سبحانه – ليعملوا ، وعادوا إلى يده – سبحانه – ليتسلموا منه الجـــزاء . وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء . أما يوم القيامة فهناك قد قُضي الأمر وعادت الأمور إلى الله (وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور) .. وطوي الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا وجهاً لوجه أمام الله الذي ترجع إليه وحده الأمور .. فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الايمان والاسلام ، وهذا الفزع الأكبر

ينتظرهم ؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم . والسلم منهم قريب . السلم في الدنيا والسلم في الآخرة يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . ويوم يُقضى الأمر .. (وقد قضي الأمر) .. (وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) . ففي هذا اليوم يوم الحشر .. يوم ينفخ في الصور (هو القرن المجوف كالبوق) وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ، بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به .

والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة المولى له ، والروايات المأثورة تقول : هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور حيث يهبون للنشور – وهذه هي النفخة الثانية ، أما الأولى فيصعق لها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .. .(ما بين النفختين أربعون) قيل أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيتُ ، قالوا : أربعون شهراً ، قال : أبيتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيتُ ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الانسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجبُ الذنب ، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة [1]) .

هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من أحياء ومن في السموات كذلك – إلا من شاء الله – فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لتقوم الساعة وثوبها بينهما لا يبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف بلبن لقحته لا يطعمه ، ولتقوم الساعة يلوط [2] حوضه

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) لاطه : بمعنى قدره أي طينه لئلا يتسرب منه الماء .

لا يسقيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع لقمته إلى فيه لا يطعمها[1]) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس ، فلا تزال ترتفع في السماء وتنتشر حتى تملأ السماء ، ثم ينادي منادٍ : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه) . قال رسول الله ﷺ : (فوالذي نفسي بيده إن الرجلين ينشران الثوب فلا يطويانه ، وإن الرجل ليمْدُرُ حوضه فلا يسقي منه شيئاً أبداً ، والرجل يحلب ناقته فلا يشرب أبداً[2]) .

وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا عن يقين ـ أنه على غير مايمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هـذه الأرض ، أو تصوروه .. وهو من ثم غيب من غيب الله .. نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وآثاره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين ، إنما هي الظنون ، وفي هذا اليوم الذي ينفخ فيه الصور يبرز ـ حتى للمنكرين ـ ويظهر حتى للمطموسين ـ أن الملك لله وحده ، وأنه لاسلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . فأولى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور .. (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً) .

مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج .. ثم إذا نفخة التجمع والنظام (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) فإذا هم في الصف في نظام .

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ،

---

(١) رواه احمد وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه الطبراني باسناد جيد . رواته ثقات .

ولكأن في أسماعهم صمماً .. إذا بهؤلاء تُعرض عليهم جهنم فلا يُعرِضون عنها كما كانوا يعرِضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضاً . لقد نزع الغطاء عن عيونهم فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقا . وفي ذلك اليوم تتضاءل أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمن ، وتعنو الوجوه للحي القيوم .. (وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) .

هؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويا لسوئها من أحمال ! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيمَ يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم وقصرت أيامها في مشاعرهم . فليست في حسهم سوى أيام قلائل (إن لبثتم إلا عشرا) وأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر (إن لبثتم إلا يوما) ، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها مليئة بالسعادة والمسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لانهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ، وهناك تتقطع الروابط وتسقط القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . وشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ولا يتساءلون .

ليست هناك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الاخلاص . (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . اخلاص القلب كله لله وتجرده من كل شائبة

ومن كل عرض ومن كل غرض ، وصفائه من الشهوات والانحرافات ، وخلوه من التعلق بغير الله ، فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير ، فماذا ينتظرون . (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) .

إنه مشهد خاطف سريع ، صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لايتوقعونها ولايحسبون لها حساباً . فاذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصي بمن بعده ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة ، وأين هم ؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون . ثم ينفخ في الصور فاذا هم ينتفضون من القبور ، ويمضون سراعاً ، وهم في دهش وذعر يتساءلون (من بعثنا من مرقدنا) ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون . هذا ما وعد الرحمن . ثم إذا الصيحة الأخيرة ، صيحة واحدة ، فاذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش ، يثوب ، وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع (فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) . وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ﷺ (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ) فكأن ذلك ثقل على أصحابه فقالوا : كيف نفعل يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا[1]) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه أحمد .

فقال : ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه [1]) .

نحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق ، وتحدث بعدها الأحداث وهي غيب (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) . والصور البوق ينفخ فيه ، وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السموات ومن في الأرض . إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . وفيها يصعق كل حي في السموات والأرض إلا من شاء الله ، (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) . يوم ينفخ في الصور فيصعقون قبيل البعث والنشور يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع وكلهم أتوه أذلاء مستسلمين . (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) .

هذه الخلائق التي غبرت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التي لا تحصى ، والتي تعاقب فيها الموتى كلها تشقق ، وتنكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو هائلة في مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله . ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) . فيتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة . ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية رتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ، وكأنما الجبال مذعورة من المذعورين ، مفزوعة من المفزوعين هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار .

مشهد مروع حقاً ، هذه الأرض التي يجوس الانسان خلالها آمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الانسان بروعتها

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه .

واستقرارها . هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد . إنه مشهد يشعر معه الانسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم فاذا وقع هذا ، إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فهو حينئذ الأمر الهائل . الواقعة لا بد أنها واقعة ، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة .

إن هذه النصوص التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ، ونكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ، وهي نصوص مجملة توحي بشيء عام ، وهذه النصوص هي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذي خلق ، والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلها هذه ، الضخمة بالقياس الينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون فتدك دكة واحدة ، ونكاد نشهد السماء وهي مشققة والكواكب وهي متناثرة منكدرة كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة بكامل قوتها كأنها حاضرة .

إن الناس لم يخلقوا عبثاً ، ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم هذا التقدير ، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا ، ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً ، ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيراً واحداً ، ويعدلون في الأرض أو يظلمون ، ثم يذهب العدل والظلم جميعاً .

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود ، وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام . (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيّرت الجبال فكانت سرابا) . والصور — كما قلنا — هو البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . ونحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجاً .

نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلاً بعد جيل ، وأخلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود .. نتصور مشهد هذه الخلائق جميعها .. أفواجاً .. مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة ، ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها . ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم .. أين ؟ لا ندري .. ففي هذا الكون أحداث وأهوال جسام .. وهو يوم عسير .. عسر كله (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه ، كأنه نقرٌ يصوّت ويدوي . والصوت الذي ينقر الاذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الأذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه .. فهو عسر كله ، عسر لا يتخلله يسر .. إنه أمر يوحي بالاختناق والكرب والضيق . فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير .. إنه نذير الله (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالاً ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيدَ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا) .

خلّ بيني وبين هذا المخلوق الذي خلقته وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتزّ به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ، ونعم يتبطر بها ويختال . خلّ بيني وبينه . فأنا سأتولى حربه .. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها ، قوة الجبار القهار ، لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعشة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارىء والسامع الآمنين بها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه .

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين

أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينـــالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر (من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون) والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنّة . ولقد خافوا الله في الدنيـا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة بل أمّنهم يوم يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ . لقد تنكبوا عن الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم ، فهم يجزون به كبّاً لهذه الوجوه في النار .

٢ ــ الأهوال في الكون يوم القيامة

آ ــ أحوال الارض والجبال

أمور هائلة رهيبة تحدث يوم القيامة ، قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ويبرز اسم القيامة في القرآن : القارعة ، القيامة ، الطامة ، الصاخة ، الغاشية ، الحاقة ، وهذه بأسمائها ولفظها وجرسها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار، ويبرز مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهيبة ، ومشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع (وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ومن ذا الذي يسمع (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة .

إنها القارعة التي توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها ، إنه مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم : فهم كالفراش المبثوث (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له

هدفاً ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام .. (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً) ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً وإذا هي قاع بعد ارتفاع .

القارعة .. ما القارعة . إن هذه الكلمة كالقذيفة تلقي بظلها وجرسها الايحاء المدوي المرهوب ثم أعقبها سؤال التهويل ما القارعة .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .. وهي أكبر من أن يحيط بها الادراك وأن يلم بها التصور ، ثم الاجابة بما يكون فيها لا بماهيتها . فماهيتها فوق الادراك والتصور ، إنه مشهد تطير له القلوب شعاعاً ، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً . ويحس السامع كأنّ كل شيء يتشبث به في هذه الأرض قد طار حوله هباء ، ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً . فمن ذا الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع (والملكُ على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

إنه يوم القيامة (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) . إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء [1] كقرصة النقي [2] ليس فيها علمٌ لأحد) وفي رواية (ليس فيها معلمٌ لأحد [3]) .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضاً ، وتخرج ما يثقلها من أجساد وغيرها مما حملته طويلاً (وأخرجت الأرض أثقالها) وكأنها تتخفف من هذه الأثقال التي حملتها طويلاً ! وهو مشهد يهز كل شيء

---

(١) العفراء : هي البيضاء ليس بياضها بالناصع .

(٢) النقي : الخبز الابيض .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

ثابت ، والأرض تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض وتحسبه ثابتاً باقياً . ويرى الانسان ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت (وقال الانسان مالها) مالها ؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجاً ؟ مالها ؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور موراً شديداً ! . والانسان قد شهد الزلازل والبراكين من قبل وكان يصاب منها بالهلع والذعر والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للانسان به . أمر لا يعرف له سراً ، ولا يذكر له نظيراً ! أمر هائل يقع للمرة الأولى . يومئذ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشْهَد أمامه الانسان ، يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها (يومئذ تحدث أخبارها) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (يومئذ تحدث أخبارها) قال أتعرفون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا [1]) .

يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها (بأن ربك أوحى لها) وأمرها أن تمور موراً ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها (وأذنت لربها وحُقّت) تحدث أخبارها (وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقّت) .

لقد تخلت الأرض عما فيها من تلك الخلائق التي لا تحصى ، والتي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . وقد حملت حملها هذا أجيالاً بعد أجيال ، وقروناً بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم : ألقت ما فيها وتخلت واستجابت لأمر ربها مستسلمة مذعنة معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها .

وهذا الانسان مشدوه مأخوذ ، يلهث فزعاً ورعباً ، ودهشة وعجباً واضطراباً

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه .

ومورداً .. يرى الجبال وهي تسير (وإذا الجبال سيّرت) ، هذه الجبال وقد نسفت وبُسّت ورآها ذرات في الهواء (وبسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) (يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً) ، (وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

هذه كلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبـــال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض ، والذي يقول عنه القرآن (إذا زلزلت الأرض زلزالها) .

هنا والانسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل ما لها ؟ ما لها ؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء . ويقف جبريل عليه السلام والملائكة صفاً بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن في الموقف المهيب الجليل . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) .

في ذلك اليوم المهيب الرهيب . يوم يقف جبريل عليه السلام والملائكة الآخرون صفاً لا يتكلمون إلا بإذن الرحمن حيث يكون القول صواباً . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب . وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وحساب ، يُلقي في النفس الرهبة والفزع من ذلك اليوم .

ب ـ احوال السماء يوم القيامة

في يوم القيامة سيكون مشهد الانقلاب التام لكل معهود . والثورة الكاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النـــافرة والأنعام الأليفة ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويُعلم كل مجهول ، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف . وكل شيء من حولها مقلوب ! . وهـذه الأحداث الكونية الضخام تشير إلى أن هذا الكون الذي نعهده الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيد وإحكام . إن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ،

وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ، وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعهود . وهذا ما تستهدف إليه آيات القرآن الكريم في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة – مهما بدت لها ثابتة – وتتصل بالحقيقة الباقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود .. إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو إطار محدود .

إنه انقلاب مرهوب فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله ، وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا ، وأكبر مما نعهده من الانقلابات هو أن ترتجف بنا الأرض فيزلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء ، كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ، وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة ، تسليات أطفال ، ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، ومن آيات القرآن الكريم في ذلك : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) ومنها (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) ومنها (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت) ومنها (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقّت وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقّت) ومنها (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) .

هذه الآيات وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله . فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري

للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة ! إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء ، كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف ، استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور، لا ألسنة لها ولا امتداد (إذا الشمس كورت) قد يكون هذا وقد يكون غيره ، أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

أما السماء فستزال (وإذا السماء كشطت) وكشطها إزالتها ، ونتصور أن ينظر الانسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية التي توجد بها هذه الظاهرة ، حيث تشقق السماء وتصبح وردة حمراء سائلة كالدهان (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) السماء المبنية المتينة فهي منشقة ، منفرجة على هيئة لا عهد لنا بها (وفتحت السماء فكانت أبواباً)

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور ، كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر) فالبصر يخطف ويتقلب سريعاً سريعاً تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامها الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق .

إن عذاب الله واقع فعلاً ، لأنه كان في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) وهذا العذاب للكافرين هو واقع من الله ، إن قضاءه أمرٌ علويٌ نافذٌ لا مردّ له ولا دافع . هذا اليوم هو من الناس قريب ولكنهم يستبعدونه . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) .

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة ، فان عذاب يوم القيامة قد يرونه بعيداً ، وهو عند الله قريب ، يوم تبـــدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجاة بياضاً ، ويظهر هـــذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران . (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ،وفي وسط هذا الذعر والانقلاب يتساءل الانسان الموعوب (أين المفر) ؟ ويبدو في سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فاذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة اليه ، والمستقر عنده ، ولا مستقر غيره ، (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) ، وما كان يرغب فيه الانسان من المضي في الفجور بلاحساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوباً ، وسيُذكر به إن كان نسيه ،ويؤخذبه بعد أن يذكره ويراه حاضراً (يُنبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً أم شراً . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها في ختام الحساب . ومهما اعتذر الانسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منه عذر ، لأن نفسه موكولة اليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها فاذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها ، (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) . ثم يظهر معالم الأعمال الشقية سواداً ، ومعالم الأعمال الرضية بياضاً ، ويظهر هـــذا وذاك في سيما الوجوه (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخـذ بالنواصي والأقدام) . وهو مشهد عنيف ، ومع العنف الهوان حيث تجمع الأقدام إلى الجباه . ثم يُقذف المجرمون على هـذه الهيئة إلى النار ، فهل حينئذ من تكذيب أو نكران ؟

٣ ـ يوم الحشر

إن القضية ، قضية القيامة التي أكدها القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى ، وكانت عنايته بتقرير هـــذه القضية في عقولهم ، وإقرار حقيقتها في قلوبهم

مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الانسانية . واليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها ، ومن ثم اقتضت هـــذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول . وإن اختلال الموازين وايثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فمن هذا الايثار ينشأ الاعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثرونها . وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها . (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، وتسميتها الدنيا لا تجيىء مصادفة ، فهي الواطية الهابطة ، إلى جانب أنها الدانية العاجلة — إن هؤلاء القريبي المطامح والاهتمامات الصغار المطالب والتصورات (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) هؤلاء الصغـــار الزهيدين الذين يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، ثقيلاً بتبعاته ، ثقيلاً بنتائجه ، ثقيلاً في وزنه بميزان الحقيقة . إنهم يختارون العاجلة ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير بعد الحساب العسير والظلال التي نراها في يوم القيامة هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة ، إنها ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام . فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

إن الله ينادي الناس جميعاً إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ويصف الهول المصاحب لها . وهو هول عنيف مرهوب ، إنه مشهد عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف له القلوب ، يدعوهم القرآن إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب مشهد الزلزلة وهو شيء عظيم ، فاذا الرهبة تشتد من الهول ، إذاً هو مشهد حافل بكل

مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، تتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول الموروع الذي ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه ، والهول شاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية ، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن — وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي — والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . إنه مشهد عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُحشر الناس حفاة عراة غرلا [1] قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : والأمر أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك ، وفي رواية أن ينظر بعضهم الى بعض [2]) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلا) وفي رواية قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (يأيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ألا وإن أول الخلائق يُكسى ابراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ! فأقول كما قال العبد الصالح : (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم — إلى قوله العزيز الحكيم) . قال : فيقال لي : إنهم ما يزالون مرتدين

---

(١) غرلا : الغرلة : القلفة التي تقطع من جلدة الذكر ، وهو موضع الختان .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

على أعقابهم منذ فارقتهم) زاد في رواية : (فأقول سُحقاً [1] سحقاً [2]) .

وفي أخرى للترمذي أن النبي ﷺ قال : (تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت إمرأة : أيُبصر – أو يرى – بعضنا عورة بعض ؟ قال : يا فلانة (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة ، فقالت أم سلمة : فقلت يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ، فقال : شُغِلَ الناس ، قلت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل [3]) .

وعن سودة بنت زمعة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان ، فقلت : يبصر بعضنا بعضاً ؟ فقال : شغل الناس (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه [4]) .

إنه مشهد عنيف رعيب .. مشهد هذا اليوم المخيف (يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا) الأرض ترتجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف . إنها تهز القلوب هزاً ، وتخلعها خلعاً .. (فكيف تتَّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به . كان وعده مفعولا) . وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ورجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان .. إن هذا الوعد واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان .

إن كثير من آيات القرآن يقرر أن أحداثاً فلكية ضخمة ستتم في ذلك اليوم . وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه

---

(١) سحقا : أي بُعدا .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الطبراني في الاوسط باسناد صحيح .

(٤) رواه الطبراني ورواته ثقات .

ونجومه . وإلى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم . وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور متعددة (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيّرت .. وإذا البحار سجّرت) (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجّرت وإذا القبور بعثرت).. (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقّت . وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحُقّت) .. (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) .. (إذا رجت الأرض رجاً وبُسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) .. (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبـــال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) .. (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبـــال كالعهن) .. (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) .. (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .. (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) .. (يومترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا) .. (السماء منفطر به) .. (إذا دكت الأرض دكاً دكاً) .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) .. (فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت) .. (ويسألونك عن الجبـــال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتا) .. (وترى الجبـال تحسبها جامدة ، وهي تمرُّ مرَّ السحاب) .. (ويوم نسيِّر الجبـــال وترى الأرض بارزة) .. (يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات) .. (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) .. (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا) .

فهذه الآيات كلها تنبىء بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتُدك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائهـــا من أثر

الاضطراب وإما بتفجر ذراتها واستحالتها ناراً . كذلك تطمس فيها النجوم وتنكدر وتشقق فيها السماء وتنفطر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل فيها المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة ملتهبة حمراء .. الى آخر هذا الهول الكوني الرعيب .. وكان يوماً على الكافرين عسيرا بما فيه من هول وبما فيه من عذاب .

لقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن ، وكلها توحي بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطاً مصحوباً بقرقعة ودَوِيّ وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ويروّعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء ـ حين تُقاس بأهوال يوم الفصل ـ بلعب الأطفال التي يفرقعونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الاطلاق .

إنها صورة مروعة مفزعة حين تقع هذه الواقعة (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة) وانها لتخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ، ثم تستقيم في ميزان الله .

إن هول ذلك اليوم يتبدى في كيان هذه الأرض ، الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج الأرض رجاً ، ويبسّ الجبال بساً ويتركها هباء منبثاً . وما أجهل الذي يتعرضون له وهم مكذّبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال . (أفمن يلقى في النار خيرٌ أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) إنها تزلزل الكيان البشري ، وتهول الحس الانساني . هناك الكل مجموعون الى الله خاضعين طائعين (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدّهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) .

إن كل من في السموات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً،فلاولدولا شريك انما خالق وعبيد . . وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان (لقد أحصاهم وعدهم عداً) فلا مجال لهرب أحد ، ولا نسيان لأحد ، فعين الله على كل فرد وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديّان (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن صاخاً ملحاً ، ومشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لاتنفصم ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقاً ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً . فالهول يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ، ويستبد بها استبداداً . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد (لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه) .

فهاهي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون ويكذب بها المكذبون . هاهي ذي تجيء ، أو هاهي ذي تقوم ! (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) وهؤلاء المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم في النجاة ، ولا رجاء لهم في خلاص ، ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم هاهم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين ثم هاهو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين . المؤمنين يتلقون فيها ما يُفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير ، والذين كفروا في العذاب محضرون باقون (إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين) انكم في يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره ، فلستم بفلتين أومستعصين ، ويوم الحشر ينتظركم ، وانه لآت لاريب فيه ولن تفلتوا يومها،

ولن تعجزوا الله القوي المتين . فمن كفر فسيلاقي جزاءه ، ومن عمل صالحاً فقد مَهَّد لنفسه الراحة في ذلك اليوم العسير (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لامَرَدَّ له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) ويمهد معناها يُمهِّد ويُعَبِّد ، ويُعد المهد الذي فيه يستريح ويهيىء الطريق أو المضجع المريح لذلك اليوم ، يوم يجمع الله فيه جميع الخلائق (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) .

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تُبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله ، ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله ﷺ — عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني أرى مالاترون ، واسمع مالا تسمعون ، أطّت [1] السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم الى الصُعدات [2] تجأرون [3] الى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد [4]) والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع ! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم الى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان و كأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ،

---

(١) أطت : من الاطيط : وهو صوت القتب والرحل ونحوهما اذا كان فوقه ما يثقله ، ومعناه أن السماء من كثرة ما فيها من الملائكة العابدين ثقلها حتى اطت .

(٢) الصعدات : الطرقات .

(٣) تجأرون : تضجون وتستغيثون .

(٤) رواه البخاري باختصار ، والترمذي والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد .

وليغبن كل فريق مسابقة ! ففاز المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك .

وهناك يتضاءل في حسّ الكافرين كل ما وراءهم قبل هذا اليوم ، فيُقسمون : ما لبثوا غير ساعة (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .. ويحتمل أن يكون قسمهم منصباً على مدة لبثهم في القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم في الأرض أحياء وأمواتاً ..

ننظر فإذا الحياة التي تزحم في حسّهم وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم ، رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) في هـذا المنظر ، المحشورون مأخذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف ، هذه هي الحياة الدنيا ، والناس قد دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف .

إنه لتشبيه ولكنه حق اليقين .. إنه لتشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيـا ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس في هذه الحياة .. ثم يرحلون !

وتبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همّهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة . وكذبوا بلقاء الله ، وشُغلوا عنه واستغرقوا في تلك الرحلة — بل تلك الومضة — فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشيء يلقون به ربهم ، ولم يستعدوا كذلك للاقامة الطويلة في الدار الباقية .

في يوم القيامة تتضاءل الحياة الدنيـا . وترى المجرمين يتخافتون بينهم الحديث ، انهم يحدسون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت فليست في حسهم سوى أيام قلائل (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا) فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) ، إنه أمد قصير . وإنهـا لحياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة . انها لتافهة لا تترك وراءهـا من الواقع والأثر في النفوس إلا مثلما تترك ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون

في الأمد الذي يدوم (فإنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) ما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم (بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فما هي إلا ساعة من نهار ثم يكون ما يكون .

٤ ــ أحوال الناس في يوم الحشر

يقول الله سبحانه (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا . بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون) .

هذه أبصار الذين كفروا لا تطرف من الهول الذي فوجئوا به . يقولون ياويلنا. وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . انها مشاهد يوم القيامة وما يجري فيها من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي اغترار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة ! يرسمهم القرآن الكريم (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) .

يرسم مشهد مكروب ذليل . وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن التعبير فيه من التهكم والسخرية . فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون الى نصب يعبدونه ، ونلمح خلال الكلمات سماتهم كاملة ، صورة ذليلة عانية . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون. (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب

وكأنما هو غول مفزع ، وهو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ، ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون . وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً لا مخلص منه وهو واقع به . تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . تلك آيات الله وبياناته . هناك (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) .

هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن واغبرّت من الغم ، واسودّت من الكآبة ..

وجوه مستنيرة منيرة ضاحكة مستبشرة ، راجية في ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) فهي تنجو من هول القيامة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . ووجوه تعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض (ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة) وقد عرفت ما قدمت . فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه ، ولكنه الذع بالتبكيت والتأنيب (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنها الخسارة المحققة المطلقة . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى ، وخسارة الآخرة (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) .

والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) . ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) (ومن أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) . مشهدهم كالدواب الموقرة بالاحمال . بل الدواب أحسن حالاً . فهي تحمل أوزاراً من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ! والدواب تحط

عنها أوزارها فتذهب لتستريح . هؤلاء يذهبون بأوزارهم الى الجحيم مشبعين بالتأثيم . (ألا ساء ما يزرون) .

إنه مشهد ناطق بالخسارة والضياع ، مشهد ناطق بالهول والرهبة . هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب . قد أدى بهم ذلك الانكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) وشطراً من ذنوب الذين يضلونهم (ومن أوزار الذين يضلونهم) ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالاً ذات ثقل ــ وساءت أحمالاً وأثقالاً (ألا ساء ما يزرون) .

مشهد مهين مذل

لقد جعل الله للهدى والضلال سنناً ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الانسان مهيأ للهدى والضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو في طريق الضلال (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً . مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) .. فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ، وهذا هو المهتدي حقاً ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال والاعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله في يومهم الموعود (فتولّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) .

يوم ترى جموع خارجة من الأحداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) . وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه .. وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والاسراع يقول الكافرون (هذا يوم عسر) وهي قولة المكروب المجهود الذي

يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب . فهذا اليوم الذي اقترب وهم عنه معرضون ، معرضون عن دلائل الهدى لذلك يحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة على وجوههم يتكفأون عمياً وبكماً وصماً مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام ، جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيـــا عن ادراك دلائل الهدى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم) . قيـــل يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : (إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك [1]) .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : إن الصادق المصدوق حدثني (أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج [2] : فوجاً راكبين طاعمين كاسين ، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم ، وتحشرهم النار ، وفوجاً يمشون ويسعون يلقي الله الآفة على الظهر ، فلا يبقى ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة فيعطيها بذات القَتَب لايقدر عليها [3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طوائق [4] : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النـار ، تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهـــم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا [5]) .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) الفوج : الجماعة من الناس .

(٣) أخرجه النسائي في الجنائز ، باب البعث ، واسناده حسن .

(٤) طوائق : حالات .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

ومشهد الحشر على الوجوه فيه من الاهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقابل التعالي والاستكبار والاعراض عن الحق . إنه مشهد يذل الكبرياء ويزلزل العناد ويهز الكيان ، (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) .

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلا) أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ (أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه [1]) .

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتُجرون على وجوهكم [2]) .

إن هذه الانذارات تهزهم هزاً ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظلون معاندين لذلك يكون مصيرهم كما بين رسول الله ﷺ .

روي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يبعث الله يوم القيامة ناساً في صورة الذر يطؤهم الناس بأقدامهم ، فيقال : ما بال هؤلاء في صورة الذر ؟ فيقال هؤلاء المتكبرون في الدنيا [3]) ثم مأواهم جهنم لا تبرد ولا تفتر (مأواهم جهنم كلما خَبَتْ زدناهم سعيرا) وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف ، ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله فذلك جزاؤهم بما استبعدوا وقوع يوم البعث .

إنها مشاهد عنيفة رعيبة حين تنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون ــ وقد كانوا يدعون الى الهدى فيتخلفون ويعرضون (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه البزار .

إلا همساً) ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر ، ويخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر الوجوه بالجلال الرزين والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة والضلال والعمي (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تُنسى) . وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى . حتى إذا سأل كان الجواب . هؤلاء المجرمون يومئذ زرق الوجوه من الكدر والغم (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ويعضون على أيديهم حسرة وألماً (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا) .

إنه مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى ، ويصمت كل شيء من حوله ، ويروح يمد في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة .. (ويوم يعض الظالم على يديه) .. فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها ، إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين . وهي حركة معهودة يرمز بها الى حالة نفسية .. يا ليتني سلكت طريق الرسول ، لم أفارقه ، ولم أضل عنه ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله . لقد كان شيطاناً يضل أو كان عوناً للشيطان يقوده الى مواقف الخذلان ، ويخذله عن الجد ، وفي مواقف الهول والكرب .

إنه يوم زحام وخصام ، يوم ذل ومهانة ، يوم عصيب ، يوم عسير « يوم عسير على الكافرين غير يسير » . حيث تنشر صحف الأعمال « وإذا الصحف نشرت » ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب

من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة ! إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ، كما أنه سمة من سمات الانقلاب الكوني حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون في الصدور إنه يوم عسير يوم ثقيل ، يوم مكروب ، كلُّه عذاب ورهبة .. يوم يقف الناس يوم القيامة « يوم يقوم الناس لرب العالمين » ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ « يوم يقوم الناس لرب العالمين » قال : يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه [1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يَعرقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقُهم سبعين ذراعاً ، وإنه يُلجمهم حتى يبلغ آذانهم [2]) .

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ـ زاد الترمذي : أو اثنين قال سُليم بن عامر : فوالله ماأدري مايعني بالميل : أمسافة الأرض أم الميل الذي تكحل به العين ؟ ـ قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه [3] ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه [4]).

وفي رواية للترمذي قال: (فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تدنو الشمس من الارض فيعرق الناس فمِنَ الناس من يبلغ عرقه عقبيه ومنهم من يبلغ نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى العَجُز ، ومنهم من يبلغ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) حقويه : الحقو : مشد الازار عند الخصر .

(٤) أخرجه مسلم والترمذي .

الحاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ عنقه ، ومنهم من يبلغ وسطه » وأشار بيده ألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يُشير هكذا « ومنهم من يغطيه عرقه » وضرب بيده وأشار وأمرّ يده فوق رأسه من غير أن يصيب الرأس دور راحتيه يميناً وشمالاً[1]) .

وعن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسبح في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب « قالوا »: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن قال ، مما يرى الناس يلقون[2]) ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ، إنّ الرجل ليُلجمه العرقُ يوم القيامة فيقول : « يارب أرحني ولو إلى النار »[3] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يوم يقوم الناس لرب العالمين » مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب[4] » .

هذا المشهد .. مشهد المؤمنين المطمئنين الى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول ، الذين يعيشون في ظل الله وكنفه يوم لا ظل إلا ظله حتى ليخفف ذلك اليوم العسير الرهيب على المؤمن فهم في أمن من الفزع الأكبر « إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » .

ولفظة حسيسها من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها . فهي تنقل صوت النار وهي

---

(١) رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

(٢) رواه الطبراني موقوفا باسناد جيد قوي .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، وابو يعلى ومن طريقه ابن حبان .

(٤) رواه أبو يعلى باسناد صحيح وابن حبان في صحيحه .

تسري وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع ، وانه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجي الذين سبقت لهم الحسنى من سمـــاعه ـ فضلاً عن معاناته ـ نجوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المشركين ، وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم وتولي الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم في جو الفزع المرهوب .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال ، (يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقيل : ما أطول هـذا اليوم ! قال النبي ﷺ (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة[1]) .

إن الذي يريد الآخرة لابد ان يسعى لهـا سعيها ، وينهض بتبعاتها ، فمـا يقدم الانسان في هذه العاجلة سيلاقيـه في الآجلة القريبة وسيلاقي ربه على ماكان عليه ومـــا مات عليه .

عن جابر بن عبـد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « يُبعث كل عبد على ما مات عليه [2] » .

أما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » . .

وأمـا المجرمون فمسوقون إلى جهنم وِرداً كما تساق القطعان « ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » .

يقول الامام المحاسبي رحمـــه الله « . حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يُفجـــأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغـار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

(٢) أخرجه مسلم .

بأنك تدعى الى العرض على الملك الاعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والاكرام والعظمة والكبرياء. فبينا أنت فزع للصوت اذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرّون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والانس عراة حفاة ، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصَغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه ، ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم اقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور ، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ،وأقبلت الشياطين بعد عتوّها وتمرّدها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى اذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها واطفاء نورها . فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من

فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر الى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات مايتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير : « فصارت وردة كالدّهان » ، « ويوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » . .

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين الى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه . فتوهم تحدّرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل ـ كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال ، حدثنا رشدين بن سعيد عن أبي السمح عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : لله ملك مابين مواقي عينيه إلى آخر شفره مسيرة مائة عام . فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافّهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك الى السماء السابعة كل أهل سمـــاء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا ، حتى اذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرهـــا واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم

وتدافعت ، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجـــل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد كاد أن يغيب في عرقه ومنقدتوسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام .

عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي من طول القيام قالا جميعاً) حتى يقول رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لامحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقدعلاك العرق وأطبق عليك الغم وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والنـــاس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال يوم يقوم الناس لرب العالمين قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار فسُقوا من عين آنية قد آن حرهـــا واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحـــة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده ابراهيم ، وموسى وعيسى من بعـد ابراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي

بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها و كذلك يقول الله عز وجل : (يوم تأت كل نفس تجادل عن نفسها) .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل ابراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم اليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرّ لربه ساجداً ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1] .

٥ — استجواب مرهوب ، وشهادة الحق

إن يوم القيامة عسير وثقيل ، ثقيل بأحواله ، ثقيل بنتائجه ، فهناك موعد الوسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال . فالرسل قد أُقِّتَتْ لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السموات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون .. (وإذا الرسل أُقِّتَتْ) .

---

(١) من كتاب التوهم ص ٥ ـ ١٠ .

إنه مجلس الفصل بحضر الرسل فويل يومئـــذ للمكذبين . إنه إنذار من العزيز الجبار .

فاليوم تجمع الحصيلة ويضم الشتات ويقدم الرسل حساب الرسالات (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أُجبتم ؟ قالوا : لا علمَ لنا إنك أنت علام الغيوب) . هنا تعلن النتائج على رؤوس الأشهاد (ماذا أُجبتم ؟) ، والرسل بشر من البشر ، لهم علم ما حضر ، وليس لهم علم ما استتر . لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ، فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى ، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى . فإنما له ظـاهر الأمر ، وعلم ما بطن لله وحده .. وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف ، والذي يهابونه أشدّ من يهاب ، والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير .

إنه الاستجواب المرهوب[1] في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملأ الأعلى

---

(١) من تفسير ابن كثير :

قال الامام احمد : حدثنا وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن ابي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بَلّغت ؟ فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال لهم هل بَلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته . قال : فذلك قوله « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » . قال : الوسط « العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » . رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الاعمش .

وقال الامام أحمد أيضا : حدثنا ابو معاوية حدثنا الاعمش عن ابي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول نعم فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هـذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله عز وجل : « **وكذلك جعلناكم امة وسطا** » قال : عدولا « **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ».

وروى الحافظ ابو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الاشجعي « عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد الا وَدَّ أنه منا ، وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهـد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل » .

وعلى مشهد من الناس أجمعين ، الاستجواب الذي يراد به المواجهة ، مواجهة البشرية برسلها ، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم . ليعلن في موقف الاعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاؤوهم من عند الله بدين الله ، وهاهم أولاء مسؤولون بين يديه — سبحانه — عن رسالاتهم وأقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون . ثم ينادي الله المكذبين ماذا أجبتم المرسلين ؟ (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) .

إن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب ، وصمت الذي لا يجد ما يقول . والقرآن يلقي ظل العمى على المشهد والحركة .. فهم لا يملكون سؤالاً ولا جواباً وهم في ذهولهم صامتون ساكتون .

هاهم الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يُؤْذن لهم في حجة ولا استشفاع (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يُخفف عنهم ولا هم ينظرون) . ولا يُؤْذن لهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء . وجاء وقت الحساب والعقاب . ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله او من دون الله . فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون : (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) فاليوم يُقرون (ربنا) واليوم لا يقولون عن هؤلاء أنهم شركاء الله . إنما يقولون (هؤلاء شركاؤنا) .

ويفزع الشركاء من هذا الاتهام الثقيل فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) .. وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب .

٦ – الحساب

يقول الله سبحانه : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) آيات تهز الغافلين هزاً ، والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جدّ وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . والله سبحانه يبين ذلك (يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) .

إنه مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الامام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فَرِح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالاً . وجزاؤه معروف . والقرآن يرسمه في المشهد المزدحم الهائل . أعمى ضالاً يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك ، لأن مشهد العمي والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر في القلوب . والله سبحانه يصور ذلهم وخزيهم فيقول : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنه السؤال الذي يزلزل ويذيب . فيجيبون إجابة المهين الذليل (بلى وربنا) . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . هذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سعة التصور الانساني وآثرت عليه حجر التصور الحسي ، والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الانساني الكريم ، وأخلدت إلى الأرض . وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! لقد ارتكست

هذه الخلائق التي أهّلت نفسها لهذا العذاب ، الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ، الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ، بذلك التصور الهابط الهزيل ، هناك سيقف هؤلاء مشفقين مما يجدونه في صحيفة أعمالهم . يقول سبحانه : (ويوم نُسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ، وعُرضوا على ربك صفاً . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

إنه مشهد الهول يرتسم على صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسية فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز مكشوفة لانجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية . ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبىء شيئاً ، ولا تخفي أحداً (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى العرض الشامل . (وعرضوا على ربك صفاً) هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا . هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، ولم يتخلف منها أحد . فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحداً . وإنالنكاد نلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح ، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب . فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فاذا هو شامل دقيق ، وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدر بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة (ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً ولا هرباً ولا مغالطة ولا مداورة (ووجدوا ما عملوا حاضراً) ولاقوا جزاءاً عادلاً لقاء ما قدموا من عمل يقول سبحانه : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله . والزامه له في عنقة تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته . فعمله لا يتخلف عنه ولا هو يملك التملص منه . كما أن اخراج كتابه منشوراً يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك اخفاءه أو تجاهله أو المغالطة فيه ، ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور فاذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ، وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ، ويلحظ هذا الكتاب في فزع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) إنها مواجهة قاسية . (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) . وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري وتحاصره برصيده من الخير والسوء . وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود — ولكن لات حين مودة — لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمداً بعيداً . أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمداً بعيداً . بينما هو في مواجهته ، آخذبخناقه ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار !

لقد عمل القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عملها في تربية الجماعة المسلمة حتى أنت بالعجب العجاب ، وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً وكانت الآخرة في حسّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه . فالآخرة كانت حقيقة يعيشها ، لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت وهم لا يظلمون وكان هذا هو سر تقواه وخشيته (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

لقد كان المسلمون يعيشون في الآخرة ، فلقد شقّ عليهم قول الله عز وجل : (من يعمل سوءاً يُجزَ به) . كانوا يعرفون النفس البشرية — كما هي على حقيقتها ،

ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتهـــا ، ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحياناً ، ولم ينكروا أو يغطوا هذا الضعف الذي يجدونه . ومن ثم ارتجفت نفوسهم . وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يُجزون به . ارتجفت نفوسهم كالذي يواجه العاقبة فعلاً ويلامسها . وهذه كانت ميزتهم ، أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلاً بمشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت راجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد .

لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى . ولقد هزّت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جَداً ، ويعرفون صدق وعد الله حقاً ، ويعيشون هذا الوعد ، ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا . لقد كانوا يعيشون لهذا القرآن كانوا يعرفون معنى قوله سبحانه (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) . فما معكم إلا ذواتكم مجردة ، ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفراداً لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفراداً ، ينزل أحدكم من بطن أمه فرداً عريان أجرد غلبان ! ولقد ندّ عنكم كل شيء وتفرّق عنكم كل أحد ، وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه .

تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! « لقد تقطع بينكم » تقطع كل شيء كل مـــا كان موصولاً كل سبب وكل حبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب ! إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزاً عنيفاً ، وهو يشخص ويتحرك ، ويلقي ظلاله على النفس ، ويسكب ايحاءاته في القلب ، ظلاله الرعيبة المكروبة ، وايحاءاته العنيفة المرهوبة .

إن مشاهد القيامة تزلزل القلب . . فاليوم للعمل ، فان الاعتراف بالخطأ والاقرار

بالحق يوم القيامة لاينفع لقد فات الأوان .. فاليوم للجزاء لا للعمل .. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان . مشهد وراء مشهد ، وكل مشهد يزلزل القلوب ويخلخل المفاصل ويهز الكيان ، ويفتح العين والقلب ـ عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه على الحق .

إن الايمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الايمان بالله وفق التصور الاسلامي ، والذي يقوم على أساس أن الله خلق الانسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط ، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض ، وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا ، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء .

عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه[1]) .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به[2]) .

فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الايمان وفق التصور الاسلامي .. وهذا الايمان على هذا النحو هو الذي يُكيف ضمير المسلم وسلوكه ، وتقديره للقيم والنتائج في هذه العاجلة . فهو يمضي في طريق الطاعة ، وتحقيق الخير ، والقيام على الحق والاتجـــاه الى البر سواء كانت ثمرة ذلك في الأرض ـ راحة له أم تعباً . كسباً له أم خسارة . نصراً له أم هزيمه . وجداناً له أم حرماناً . حياة له أو استشهاداً . لأن جزاءه هنالك في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء ، واجتيازه الامتحان . لايزحزحه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشر والقتل .. فهو إنما يتعامل مع الله .. وينفذ عهده وشرطه ، وينتظر الجزاء هنالك !

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث صحيح .

(٢) رواه البزار والطبراني باسناد صحيح واللفظ له .

قاعدة الحساب والجزاء

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ، ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ، وتوجد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس .. فاما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ، فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي يحكمون بها ، ويتحاكمون اليها أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحاكموا بها ولا يتحاكموا إليها .

« ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .. فهو وحده يحكم وهو وحده يحاسب ، وهو لا يبطىء في الحكم ، ولا يمهل في الجزاء . ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري. فهو ليس متروكاً ولو إلى مهلة في الحساب إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيموا شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله في الدنيا ، فان هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله سبحانه ـ إلهاً في الأرض ، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله ـ أو الشرك به باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر ، واتباع شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات ـ والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وإن القرآن ينبه إلى حقيقة هامة يجب أن يتبينوها .. « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » هؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعاً لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال . ينفقون حياتهم فيه هدرا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا

وزن في ميزان القيم الصحيحة ولهم بعد ذلك جزاؤهم « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .

هؤلاء سيقفون أمام الله ويُسألون « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون » .. احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون .. وفي الأمر - على مافيه من لهجة حازمة - تهكم واضح في قوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهي الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهـــاهو ذا الخطاب يوجه اليهم بالتقريع في في صورة سؤال بريء « مالكم لا تناصرون » مالكم لاينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟ « بل هم اليوم مستسلمون » .

إن الله يقرر قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » . لقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات وجعلها كفارة للسيئات . فاذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم منها بغير حساب .

إن المؤمن يشعر بضخامة سؤال الله له يوم القيامة . سؤال الحواس والقلب (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يُسأل عنها صاحبها . وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها ، كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الانسان رواية ، وكلما أصدر حكماً عن شخص أو أمر أو حادثة . فلا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تتثبت من صحته .

فهناك يوم القيامة فلا حاجة إلى كلمة تقال أو إلى صوت يرتفع (وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) . (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها . فالموقف موقف إذعان وتسليم ، ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف بركب الجنة ركب المتقين (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابهـــا وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب وبيان السبب (طبتم) وتطهرتهم كنتم طيبين وجئتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب ، وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود في ذلك النعيم .

حساب وعرض

أمور القيامة هائلة رهيبة ، قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . ومن ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . مشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة (وأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية) . فهو يدعي الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة وما يكاد يصدق بالنجاة .

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ..) يا ليتني ! بهذا التفجع الطويل الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . من ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . يوم العرض يوم تتكشف الأمور فلا يخفى شيء . (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

فالكل مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف

العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميـــع الأستار التي كانت تحجب الأسرار .. وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الانسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه ! .

وما أقسى الفضيحة على الملأ . وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الانسان لايشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بستور الأرض . فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء بارز في الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لاتحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز . والسماء متشققة واهية لاتحجب وراءها شيئاً ، والأجسام معراة ولا يسترهـــا شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر .. ألا إنه لأمر عصيب أعصب من دك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الانسان ، عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ماظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الانس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

إن طبيعة الانسان لمعقدة شديدة التعقيد ، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها وإن الانسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخز إبرة ، فتنطوي سريعاً ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماماً . إن الانسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً قد تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه ، وإن لمحة أصابت منه درباً خفياً أو منحنى سرياً ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية .. فكيف بهذا المخلوق وهو عريان حقاً ، عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . كيف

به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار . ألا إنه لأمر أمرّ من كل أمر .

كل شيء مكشوف .. كل شيء مسجل وقد أحصاه الله (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) (ألم تر أن الله يعلم مافي السموات وما في الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

إنها صورة تترك القلب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة ، وهي مأخوذة بحضر الله الجليل المأنوس .. وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم ، وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم ، وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك !

إنها حالة لايثبت لها قلب ، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز ، وهو بحضر مأنوس .نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . بحضر الله وهو معهم أينما كانوا ثم يُنبئهم بما عملوا يوم القيامة وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع مابعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان مايسرّه المتناجون وينعزلون به ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم المشهود .. يوم تبعثر القلوب بعد بعثرة القبور (أفلا يعلم إذا بعثر مافي القبور وحُصّل مافي الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) .

وهو مشهد عنيف، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضَنّت بها وخبأتها بعيداً عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي . أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب، وتردد كل مراد ، فالمرجع إلى ربهم وإنه لخبير بهم يومئذ وبأحوالهم وأسرارهم .. والله خبير في كل وقت وفي كل حال .

ولكن لهذه الحبرة يومئذ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . خبرة مسجلة (أم يحسبون أنّا لانسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .. كل شيء مسطر في الصحائف ليوم الحساب لاينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب الله (وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مُستَطر) .

إن كل ماقدمت أيديهم من عمل ، وكل ماخلّفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسى ، والله هو الذي يحصي كل شيء ويثبته (إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) .. (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) .

جاءت كل نفس ، فالنفس هنا هي التي تُحاسَب . وهي التي تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا وقد يكونان غيرهما والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة ولكن بين يدي الجبار (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الذي لم تحسب حسابه . وهذه هي النهاية التي كنت لاتتوقعها . فالآن انظر . فبصرك اليوم حديد . هنا يتقدم قرينه والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته (وقال قرينه هذا ماادي عتيد) .. حاضر مهيأ معد لايحتاج الى تهيئة أو إعداد . وكل شيء مسجل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ، ولا يظلم أحد ، فالجازي هو الحكم العدل . (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) « هناك تبلوا كل نفس ما أسلفت » إنها حقائق مخيفة عجيبة .. ياأيها الانسان ألا فاختر لنفسك إما السعادة وإما الشقاء (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا) .

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد ، الذي آمن وأحسن ، فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حساباً يسيراً فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب ، والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ — وفيها غناء .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : (من نوقش[1] الحساب عُذِّب) فقلت : أليس يقول الله : (فأما من أُوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً) فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك[2]) . وفي رواية (وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلاعُذِّب) .

وعنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته (اللهم حاسبني حساباً يسيرا) فلما انصرف قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك[3]) .

وعن ابن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من نوقش الحساب هلك[4]) .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ثم ينجو ، وينقلب الى أهله مسروراً ، من الناجين الذين سبقوه الى الله ، إن هذا يصور رجعة الناجي من الحساب الى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان !.

إنه مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف (هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه) ويذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن

---

(١) نوقش : المناقشة في الحساب : تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه .

(٢) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي .

(٣) رواه الامام أحمد باسناده عن عبد الله بن الزبير عن عائشة وهو صحيح على شرط مسلم .

(٤) رواه البزار والطبراني في الكبير باسناد صحيح .

ينافش الحساب (ومن نوقش الحساب عُذّب) كما جاء في الأثر .. انها رحمة الله تحيط بالمؤمن يصورها النبي ﷺ :

عن صفوان بن محرز المازني قال : (بينما ابن عمر رضي الله عنه يطوف ، إذ عَرَضَ له رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يُدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كَنَفَه [1] فيقوره بذنوبه . تعرف ذنب كذا و كذا ؟ فيقول : أعرف ربِّ ، أعرف ـ مرتين ـ فيقول : سترتها عليك في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون ـ أو الكفار ، أو المنافقون ، فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين [2]) .

ومن رحمته سبحانه أن يبدل السيئات بالحسنات :

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : أعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقال له : عملت يوم كذا ، كذا و كذا . وعملت يوم كذا ، كذا و كذا ؟ فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول ربِّ ، قد عملت أشياء لا أراها هاهنا . قال : فلقد رأيت رسول الله يضحك حتى بدت نواجذه [3]) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، اخبرنا العاصم عن الأحول عن أبي عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع

---

(١) كنفه : المراد به قرب الله تعالى ودنو رحمته وفضله من العبد .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي .

إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) .

وروي عن عبد الله بن حنظلة ــ غسيل الملائكة ــ قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي ــ أي يظهر ــ سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له أنت عملت هـذا ؟ فيقول نعم أي رب ! فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم (فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . وأما المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء الذي يؤتى كتابه وهو كاره (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا) .

إنها هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة . فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً ، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً ــ ولكن في المعصية والاثم والضلال ــ يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء فيدعو ثبورا ، وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الانسان بالهلاك لينجو به يكون في الموقف الذي ليس بعـده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء .

هذا الشقي عرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن الى العذاب مصيره ، فيقف في المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكئيب (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) وهي وقفة طويلة وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل الى السامع أنها لا تنتهي الى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر يمضي بلا نهاية . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير ، ومن ثم يطول ويطول ، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت

هذا الموقف ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً ، ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقي أو دفع ، مع الرنة الحزينة الحسيرة المديدة .

قضـــاء عادل

إن يوم الحساب هو يوم العدل . يوم القضاء والفصل ، ومن عدله سبحانه أن تقوم الشهود على الانسان من نفسه (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ماجاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب ، وسلطان الله الذي تطيعـــه جوارحهم وتستجيب وهم يوصمون بأنهم أعداء الله فما مصير أعداء الله ؟

إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع ، إلى أين ؟ إلى النار ، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب إذا شهود عليهم لم يكونوا في حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزىء ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروي عنهم ما حسبوه سراً . قد يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم ولكنهم يتخفون بنوايا هم، ويتخفون بجرائمهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهي معهم

بل كيف وهي أبعاضهم ؟ ها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين وعن الله رب العالمين.

عن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، فيقول: يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ يقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فِيه ، ويقول لأركانه : أنطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بُعداً لَكُنَّ وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل[1] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون[2] في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ، قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، فيلقى العبد ربه فيقول : أي فلْ (أي فلان) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل ، وأذرك ترأس وتربع[3] ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول فاني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول أي فُل ، فيقول : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب : فيقول أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول: لا ،فيقول فاني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول : أي فُل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : أي رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت

---

(١) رواه مسلم .

(٢) تضارون : أي لا يضايق بعضكم بعضا في رؤيته ولا ينازعه .

(٣) تربع : معناه ما يأخذ رئيس الجيش لنفسه وهو ربع الغنائم .

وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : هنا إذاً ، ثم يقول : الآن نبعث شاهداً عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ، ويختم على فيه ويقال لفخذه : انطقي فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه [1]) . وحتى الأرض تشهد عليه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) ، قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأَمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا [2] .

يا للمفاجأة بسلطان الله الخفي ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب ، وقالوا : لجلودهم لما شهدتم علينا ، فإذا هي تجيبهم بالحقيقة التي خفت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة . أليس هو الله الذي جعل الألسنة هي الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم . لقد خدعكم الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم .

يا للسخرية ، فالصبر الآن صبر على النار ، وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء . وما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب ، فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب . لا الصفح ولا الرضى الذي يعقبه العتاب . (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

لا ظلم . إنما تجزى كل نفس بما كسبت (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها

---

(1) رواه مسلم .

(2) رواه ابن حبان في صحيحه .

يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلجاء[1] من الشاة القرناء[2] .

ورواه أحمد ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : يقتص الخلق بعضهم من بعض، حتى للجمّاء من القرناء ، وحتى للذرة من الذرة[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليختصمن كل شيء يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا[4] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه ، فليتحلله منه اليوم ، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه[5] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ، قال : يا رب فليحمل من أوزاري ، وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يحتاج الناس أن يُحمل عنهم من أوزارهم[6] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : المفلسُ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ،وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته من

---

(١) الجلجاء : التي لا قرن لها .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) رواته رواة الصحيح .

(٤) رواه أحمد باسناد حسن .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

قبل أن يُقضى ماعليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار (١) .

إنها ظلال يوم القيامة . ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة لمشاعر التقوى والوجل والاستسلام.لقد تلقى المسلمون هذا القرآن وتوجيهات النبي ﷺ تلقي القبول فعاشوا في الآخرة عملاً وواقعاً . عاشوا وأقدامهم في الأرض وقلوبهم في السماء .

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ـ جلس بين يديه فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم . فقال له رسول الله ﷺ : يحسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فان كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لالك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل الذي بقي لك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « مالك أما تقرأ كتاب الله » (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فقال الرجل : يارسول الله ماأوجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ، يعني عبيده ، أُشهدك أنهم كلهم أحرار (٢)).

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم القضاء الفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه سوطاً ظلماً اقتصّ منه يوم القيامة (٣) .

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « يحشُر الله العباد يوم القيامة » أو قال ، « الناس عراة غُرلاً بُهماً قال : قلنا وما بُهماً قال : ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والترمذي ، قال الحافظ واسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات احتج بهم البخاري ومسلم .

(٣) رواه الطبراني والبزار باسناد حسن

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة ، قال : قلنا كيف وإننا نأتي عراة غرلاً بُهما؟ قال : الحسنات والسيئات[1])

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . حتى الذرة . (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً . كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم . فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضر وزنك فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تُظلم فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت ، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء[2]) .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله ، أنؤاخذ بما عملناه في الجاهلية ؟ قال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أُخِذ بالأول والآخر[3]) . .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، فهل تُضارون[4] في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً

---

(١) رواه أحمد باسناد حسن .

(٢) اخرجه الترمذي في الايمان واسناده صحيح ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيره .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) تضارون : أي لا يضايق بعضكم بعضا في رؤيته ولا ينازعه .

ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فما تضارون في رؤيةالله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق الا من كان يعبد الله من برّ وفاجر وغبر[1] أهل الكتاب ، فيدعى اليهود ، فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم مااتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فما تبغون ؟ قالوا عطشنا يارينا فاسقنا ، فيشار اليهم ألاترِدُون فيحشرون الى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ، ثم تدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، مااتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يارينا فاسقنا ، فَيُشار اليهم ألا ترِدُون ، فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبقَ إلا من كان يعبد الله من برّ وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يارينا فارقْنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ،ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ولا نشرك بالله شيئاً ، مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أي ينقلب ، فيُقال : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم ، قيل يارسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحْضٌ مزلة[2] ،

---

(١) الغبر : الباقي .

(٢) دحض مزلة : الدحض : الزلق ، المزلة : هو المكان الذي لا يثبت عليه قدم الا زلت .

فيه خطاطيف وكلاليب وحسكه يكون بنجد ، فيها تشويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والرّكاب فناج مسلّم ، ومخدوش مُرسل ، ومكدوش[1] في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده مامن أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين في النار » .

وفي رواية : فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأو أنهم قد نجوا في اخوانهم ، فيقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويُصلون ، ويحجون ؟ فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيُخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته ثم يقولون : ربنا مابقي فيها ممن أمرتنا به ، فيقال : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً » .

وكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم (إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيُّون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً من النار لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً[2] . فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر ، أو الى الشجر ، ما يكون الى الشمس يكون أصيفر وأخيضر ، وما يكون منها الى الظل يكون أبيض » فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : « فيخرجون كاللؤلؤة في رقابهم الخواتيم ، ويعرفهم أهل الجنة .

---

(١) المكدوش : المدفوع في نار جهنم دفعا عنيفا .

(٢) الحمم : جمع حممة وهي الفحمة .

هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ،فيقولون : ربنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين ! فيقول لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : باربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاي فلا أسخط عليكم أبداً[1]) .

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل . بلا إمهال ولا ابطاء ، ويخيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .

إنها القيامة المقتربة الزاحفة (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق والذي يدعون من دونه لا يقضون بشيء . إن الله هو السميع البصير) والآزفة .. القريبة والعاجلة .. وهي القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة . والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب ، وهم بارزون في هذا اليوم لا تخفى على الله منهم شيء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور ، والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها ولكنها لا تخفى على الله . والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله .

والله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق (والله يقضي بالحق) فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً ، ونرى الكافر والظالم يتحسر ولكن يوم لا تنفع الحسرة ولا الندم وإذا بصوت الجبار يقول (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) . خذوه كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

ابن أبي حاتم باسناده عن المنهال ابن عمرو (إذا قال الله تعالى « خذوه » ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار) . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ! فغلوه .. فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه ؟ (ثم الجحيم صلوه) ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وهذا العذاب . خلا قلبه من الايمان فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد . فكل شيء مؤمن ، ويسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

إنه المصير المخزي ، والعلة في هذا هو عدم اليقين بلقاء الله .

عن أبي سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ؟ وسخرت لك الأنعام والحرث ؟ وتركتك ترأس[1] وتربع[2] ؟ فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ . فيقول لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني[3]) .

أخرجه الترمذي وقال : معنى قوله (أنساك اليوم كما نسيتني) اليوم أتركك في العذاب .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله (.. فبينا أنت مع الخلائق في ظلم القيامة وشدة كربها منتظر متوقع لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن إذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه

---

(١) (ترأس) الترؤوس : التقدم على القوم وأن يصير رئيسهم .

(٢) تربع : أي تأخذ المرباع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها .

(٣) رواه الترمذي واسناده حسن ، قال هذا حديث صحيح غريب .

لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر إلا في أمرك – عن حميد بن هلال ، قال : ذكر لنا أن الرجل يدعى يوم القيامة الى الحساب فيقال : يا فلان بن فلان هلمّ الى الحساب ، حتى يقول ما يراد أحد غيري مما يحضر به من الحساب – ثم نادى: ياجبريل ائتني بالنار ؛ فتوهمها وقد أتى جبريل فقال لها : يا جهنم أجيبي ، فتوهم اضطرابها وارتعادها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به ؛ فتوهمها حين اضطربت وفارت ونارت ، ونظرت الى الخلائق من بعد مكانها فشهقت إليهم وزفرت نحوهم وجذبت خزانها متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه ؛ فتوهم صوت زفيرها وشهيقها ، وترادف قصبتها ، وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعبا ، ففرّ الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وذلك يوم التنادي ، لما سمعوا بدوّ زفيرها ولوا مدبرين وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم فأرسلوا الدموع من أعينهم .

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها وينادى الظالمون بالويل والثبور ، وينادي كل مصطفى وصدّيق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام : نفسي نفسي ، فتوهم أصوات الخلائق الانبياء فمن دون كل عبد منهم ينادي : نفسي نفسي وأنت قائلها ، فبينا أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية فيزداد رعبك ورعبهم وخوفك وخوفهم ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم ينظرون من طرف خاشع خفي خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بحريقها ، وانتصفت عندذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين فكظموا عليها وقد غصت في حلوقهم وطارت الالباب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلا ذُهل لذلك عقله ، فأقبل الله عزوجل عند ذلك على رسله وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم إليه لأنهم الدعاة الى الله عز وجل والحجة على عباده ، وهم أقرب الخلائق الى الله عز وجل في الموقف وأكرمهم عليه ، فيسألهم عما أرسلهم به الى عباده ، وماذا ردوا عليهم من الجواب فقال لهم : (ماذا أجبتم) ؟ فردوا عليه الجواب عن

عقول ذاهلة غير ذاكرة فقالوا : (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قربهم منه وكرامتهم حتى أذهل عقولهم ، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أممهم .

عن أبي الحسن الدمشقي ، قال : قلت لأبي قرّة الأزدي : كيف صبر قلوبهم على أهوال يوم القيامة ؟ قال : إنهم إذا بعثوا خلقوا خلقة يقوون عليها . قال أبو الحسن : قلت لاسحاق بن خلف قول الله عز وجل للرسل : (ماذا أجبتم قالوا : لا علم لنا) أليس قد علموا ما ردّ عليهم في الدنيا ؟ قال : من عظم هول السؤال حين يسألون طاشت عقولهم فلم يدروا أي شيء أجيبوا في الدنيا ، فهم صادقون حتى تجلّى عنهم بعد ، فعرفوا ما أجيبوا . قال : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : صدق اسحاق هم في ساعتهم تلك صادقون ، حتى تجلى عنهم فعرفوا ما اجيبوا .. فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحير إذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر ، وفررت أنت منهم أجمعين ، فكيف خذلتهم وخذلوك ، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفرّ من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك ، ولكن عظم الخطر واشتداد الهول فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون .

فبينما أنت في ذلك إذ ارتفعت عنق من النار فنطقت بلسان فصيح بمن وُكّلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب ، ثم أقبل ذلك العنق فيلقطهم لقط الطير الحبّ ثم انطوت عليهم فألقتهم في النار فابتلعتهم ، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيقدمون فيسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه حتى اذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنة والنار ، ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشمائل نصبت الموازين [1] ..) .

---

(١) كتاب المتوهم ص ١٥ ـ ١٧ .

٧ ـ طلب الفداء

إن الاسلام يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب . وإلا أن يفيء إلى الحمى الآمن ، ويعمل صالحاً . فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب فأما الذين لايتوبون ولا يثوبون . الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفراً والذين يلجون في هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهي أمد الاختيار ويأتي دور الجزاء .

هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون أنه خير وبرّ ، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله . ومن ثم فهو غير موصول له بطبيعة الحال . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة . فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب :

(إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين) .

فليس لهم من ناصر من الله . إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح من فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار ، وهم أصحاب النار (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النـــار هم فيها خالدون) .

إن الله يقرر مصائر الأعمال والأقوال .. فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو مَلَك مافي الأرض ومثله معه أن يفتدي به وما هو بمفتد ، إنمـــا هو الحساب الذي يسوء ، وإنما هي جهنم لهم مهاد . ويا لسوء المهاد (للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في

الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد) .

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض ، هو أن يكون للذين كفروا كل مافي الأرض جميعاً ، ولكن القرآن يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض. فيفرض أن لهم مافي الأرض جميعاً ومثله معه ، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم ، ولهم عذاب أليم) .

ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم) .

إنه الهول الملفوف . فلو أن لهؤلاء الظالمين — لو أن لهؤلاء مافي الأرض جميعاً ، مما يحرصون عليه ويناون عن الاسلام اعتزازاً به ومثله معه ، لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة (ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً ، لو كانت لك الدنيا كلها ، أكنت مفتدياً بها ، فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أيسرَ من هذا ؟ وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك[1]) .

والله سبحانه يقول (ولو أن لكل نفس ظلمت مافي الأرض لافتدت به وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) . فلا يقبل منها حتى على

---

(١) أخرجه مسلم .

فرض وجوده معها وهم في كمد يظلل الوجوه . إنه الرعب ليذهب بالانسان وإنه يود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، بمن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم (يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى) ببنيه وزوجه وأخيه . وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، وهي صورة التّهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الافلات .. كلا .. في ردع عن تلك الأماني المستحيلة في الافتداء .

٨ – الميزان

يقول الله سبحانه (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين) في هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم المشهود . وتلتقي الخلائق كلها بربها في ساحة الحساب (لينذر يوم التلاق) فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي . ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع ، (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) والله لا يخفى عليه منهم شيئاً في كل وقت وفي كل حال ولكنهم في غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيحسون أنهم مكشوفون ويعلمون أنهم مفضوحون ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهام . يومئذ يتضاءل المتكبرون وينزوي المتجبرون ويقف الوجود كله خاشعاً ، والعباد كلهم خضع . ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان . وهو سبحانه متفرد به في كل آن ، فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ويعلم هذا كل مفكر ويستشعره كل متكبر ، وتصمت كل نأمة وتسكن كل

حركة وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب فما في هذا الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب : (لمن الملك اليوم ؟) .. (لله الواحد القهار) .

هناك تبعثر القبور ويصدر الناس ليروا أعمالهم (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) ، ترى مشهد القيام من القبور ، ترى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض كأنهم جراد منتشر ، وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) وحيثما امتد البصر ترى شبحاً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه ، (مهطعين إلى الداع) ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع : مفزع . مرعب . مدهل ، كل أولئك وسائر مافي المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق ! (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) .. (ليروا أعمالهم) ، وهذه أشد وأدهى . إنهم ذاهبون الى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الانسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجهه بعمله على رؤوس الأشهاد في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ ..

إنها عقوبة هائلة رهيبة ، مجرد أن يروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازى عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

ذرة .. كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة ، وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة ، فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك

الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في العالم . إنما هي رؤيا في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها ، فهذه وما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! عندئذ لا يحقر الانسان شيئاً من عمله خيراً كان أو شراً . ولا يقول هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !.

إن هذا الميزان لم يوجد له شبيه أو نظير بعد في الأرض ، إلا في القلب المؤمن، القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال ، إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيماً لها عند الله اعتبار (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) . فأما من ثقلت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فهو في عيشة راضية ، إنها توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

(وأما من خفت موازينه فأمّه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) وأما من خفّت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فأمه هاوية ، والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم يومئذ وملاذه يومئذ هو الهاوية ، نار حامية ، هذه هي أمّ الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه ، الهاوية ، النار ، الحامية ، إنها حقيقة قاسية .

إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن ، ولا التلبيس في الحكم ، ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين ، (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ، فأولئك هم المفلحون) . فمن ثقلت موازينه ، فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح . وأي فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة الى الجنة، في نهاية الرحلة المديدة ، وفي ختام المطاف الطويل ؟.

روي عن أنس يرفعه ، قال (ملكٌ موكل بالميزان ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق . سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفَّ ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يَسعدُ بعدها أبداً [1]) .

ومن خفّت موازينه فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطىء (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) ، وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟

إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ؟.. لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله ، إن الحساب يومئذ بالحق وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وإن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع فكل شيء مسجل منسوخ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .

إن هذه الأجيال الحاشدة التي عمرت هذا الكوكب في عمره الطويل القصير وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب الحساب المرهوب . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها في صعيد واحد ، ومرهوب بهيئته ، والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب . ومرهوب قبل كل شيء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق يقال لهم (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع ، وكيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ولا يغيب . وإن الله يعلن لهم الاهمال والتحقير ومصير الأليم (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) .

---

(1) رواه البزار والبيهقي .

إن الله سبحانه لا يترك ذرة تضيع يوم الحساب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً. وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين).

والحبة من الخردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل .

عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وُزِّي فيه السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا ربّ لمن يزن هذا ؟ فيقول الله : لمن شئت من خلقي ، فيقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك[1]) .. وعند الميزان لا يذكر أحد أحداً فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرتُ النار فبكيت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قلتُ ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقُل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز) وفي رواية الحاكم قال : (وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، حافتاه كلاليب كثيرة، وحسك كثيرة ، يحبس الله بها من يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ؟[2]) .

هؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم .. (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) .

وحين يخسر الانسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسر التي بين جنبيه ، وخسر ذاته التي تميزه ، كأنما لم يكن له وجود .

فلتنظر نفس ما قدمت لغد . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة .

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

إن الله يقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان . وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف . (يابني إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبير) وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور ، حبة من خردل . صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السموات) في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . (أو في الأرض) ضائعة في ثراها لا تبين (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها وقدرته لا تفلتها . إن الثقة واليقين بالآخرة لا ريب فيها والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله (.. فتوهم الميزان بعظمه منصوباً ، وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك ، فبينا أنت واقف مع الخلائق ! إذ نظرت الى الملك وقد أُمِرَ أن يحضر بالزبانية فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار ، فلما رأيتهم فهتَهم طار قلبك فزعاً ورعباً ، فبينا أنت كذلك إذ نودي باسمك فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ هلم الى العرض على الله عز وجل ، وقد وكّل الملائكة بأخذك حتى يقربوك إلى ربك فلم يمنعها اشتباه الاسماء باسمك أن تعرفك لما ترى بك أنك المراد بالدعاء المطلوب .

قال : حدثنا طلحة بن عمرو قال : قال لي عطاء بن أبي رباح : يا طلحة ما أكثر الاسماء على اسمي ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان فقام الذي يعني لا يقوم غيره لما لزِم قلبك من العلم — فوثبتَ على قدميك ترتعد فرائصك وتضطرب جوارحك فتغير لونك ، فزع مرعوب مرتكض قلبك في صدرك بالخفقان ، فلما عاينتك الملائكة

الموكلون بأخذك قد حلّ بك الاضطراب بالارتعاد والمخافة ، علمتَ أنك المراد من العباد فأهوت اليك بأيديها فقبضت عليك بعنفها ثم جذبتك الى ربك عز وجل كما تجذب الدواب المنقادة تتخطى بك الصفوف محثوثاً الى العرض على الله عز وجل والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم وأنت مجبوذ الى ربك عز وجل فيما بينهم .

فتوهم حين وقفتَ بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك ، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك ، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف ، طائر فؤادك متخلع قلبك ، فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم ، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه : ادن مني يا ابن آدم ، فغيّبك في نوره ، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ، وجل مرعوب ، وطرف خائف ، خاشع ذليل ، ولون متغير ، وجوارح مرتعدة مضطربة ، كالحمل الصغير حين تلده أمه ، ترتعد بيدك صحيفة محبّرة لا تغادر بلية كسبتها ولا مخبأة أسررتها ، فقرأت ما فيها بلسان كليل وحجة داحضة وقلب منكسر . فكم لك من حض وخجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسناً ، وعليك ساتراً ، فبأي لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك ، وعظيم جرمك ، وبأي قدم تقف غداً بين يديه ، وبأي نظر تنظر اليه ، وبأي قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟ فتوهم نفسك بصغر جسمك ، وارتعاد جوارحك ، وخفقان قلبك ، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك ، وإظهار مساوئك ، وتوقيفك وتقريرك بمخبآتك ، فتوهم نفسك بهذه الهيئة والأهوال بك محدقة من خلفك ، فكم بلية قد نسيتها ، قد ذكّركها ، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك الى ميل الهوى عما يفسده قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه ، بعد ما كان تأمّلك فيه عظيماً ، فياحسرات قلبك وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك ، حتى إذا كرّر عليك السؤال بذكر كل بلية ونشر كل مخبأة فأجهدك الكرب ، وبلغ منك الحياء منتهاه لأنه الملك الأعلى فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس له مثل ،

المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول ، فما ظنك بسؤال من هو هكذا أبان عن مخالفتك إياه ، وقلة هيبتك له ، وحيائك منه ، ومبارزتك له ، فما ظنك بتذكيره إياك مخالفته وقلة اكتراثك في الدنيا بإلطافه عليك ونظرك إليه ؛ إذ يقول : يا عبدي أما أجللتني أما استحييت مني ، أستخففت بنظري اليك ، ألم أحسن اليك ، ألم أنعم عليك ، ما غرّك مني ، شبابك فيما أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته ، وعملك ماذا عملتَ فيه .

عن ابن مسعود أنه بدأ باليمين ، فقال : والله مامنكم من أحد إلا سيخلو به الله عز وجل كما يخلو أحدكم بالقمر يراه ثم يقول : ياابن آدم ماغرّك بي ، ياابن آدم ماعملتَ لي ، ياابن آدم ما استحييتَ مني ، ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ، ياابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر بهما الى مالا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع بهما إلى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لايحل لك ، ألم أكن رقيباً على يديك وأنت تبطش بهما الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشي بهما الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهمّ بما لا يحل لك ؟ أم أنكرت قربي منك وقدرتي عليك وأنت ياابن آدم بين خطرين عظيمين : إما أن يتلاقاك برحمته ويتطول عليك بجوده ، وإما أن يناقشك الحساب ، فيأمر بك الى الهاوية وبئس المصير .. فما ظنك بنفسك وضعف قلبك ، والله عز وجل يكرر عليك إحسانه اليك ، ومخالفتك له ، وقلة حيائك منه ، فأعظم به موقفاً ، وأعظِم به من سائل لاتخفى عليه خافية ، وأعظم بما يداخلك من الحزن والغم والتأسف على مافرّطت في طاعته وركوبك معصيته ، فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك منه أحد الأمرين : الغضب أو الرضا عنك والحب لك ، فإما أن يقول : ياعبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فقد غفرت لك كبير جرمك وكثير سيئاتك ، وتقبّلت منك يسير احسانك فيستطير بالسرور والفرح قلبك فيشرق لذلك وجهك ، فتوهم نفسك حين قالها لك ، فابتدأ إشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسّفه من الحياء من السؤال

والحصر من ذكر مساوىء فعلك ، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك ، فأسفرَ وجهك وابيض لونك ، فتوهم رضـــاه عنك حين سمعتُه منه ، فثار في قلبك ، فامتلأ سروراً وكدت أن تموت فرحـــاً وتطير سروراً ، ويحق لك ، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل ، فوالله تعالى لو أنك متّ فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حرياً ، وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة ، ولكن آملاً لذلك ، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة ، ولو توهمت نفسك ، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة كنتَ حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً ، فكيف ان لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنك والمغفرة لك ، فأمنَ خوفك وسكن حذرك وتحقق أملك ورجاؤك بخلود الأبد ، وأيقنتَ بفوزك ونعيمك أبداً لايفنى ، ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب ؛ فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل ، وقد بدا لك منه الرضا ، وطار قلبك فرحاً ، وابيض وجهك ، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته ، فصار كأنه القمر ليل البدر ، ثم خرجت على الخلائق بوجه محبور قد حلّ به أكمل الجمال والحسن ، يسطع نوراً مشرقاً بتلألئه تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء كتابك بيمينك ، أخذ بضبعيك مَلك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان سَعِد سعادة لايشقى بعدها أبداً ، لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه ، ولقد حقق حسن ظن الظانين وأبطل تهم المتهمين لك ، وإن في هذه المنزلة غدا على رؤوس الخلائق لَعِوضـــاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنّع لهم زهداً في المنزلة عندهم ، والتعظيم عندهم بطاعة ربه عز وجل بصدق معاملته وحده لاشريك له ، عوّضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق فشهرك برضاه عنك وموالاته إياك ؛ فتوهم نفسك وأنت تتخطى الخلائق ، وكتابك في يمينك بجمال وجهك ونوره ، وفرح قلبك وسروره . .

عن ابن مسعود أنه قال : ينشر الله عز وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن ويبسط كفه لظهرها ، فيقول ياابن آدم هذه حسنه قد عملتها في يوم كذا وكذا قد

قبلتها ، وهذه خطية قد عملتها في يوم كذا و كذا قد غفرتها لك فيسجد ، فيقول الناس : طوبى لهذا العبد الصالح الذي لم يجد في صحيفته إلا حسنة .

عن عبد الله بن حنظلة قال: إن الله عز وجل يقف عبده يوم القيامة فيبدي حسناته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ، فيقول : نعم أي ربّ ، فيقول : إني لم أفضحك به اليوم وإني قد غفرت لك اليوم ، فيقول عندها : هلموا اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه ، حين نجا من فضيحة يوم القيامة .

وأما الأمر الآخر فإما أن يقول لك : عبدي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي ، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت ، ولن أتقبل منك ما عملت ، فيقول لك في ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة [أن يقول لك] : أتعرفها ؟ فتقول : نعم وعزّتك ، فيغضب عليك فيقول : وعزّتي لاتذهب بها مني ، فنادى الزبانية فيقول : خذوه ، فماظنك بالله عزوجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله . فتوهم إن لم يعف عنك ، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب ، وأسند اليك الزبانية بغضاضتها وغلظ أكفها ، فلم تشعر حين قالها إلا وبجسّة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك ، فتوهم نفسك مستجذباً ذليلاً موقناً بالهلاك وأنت في أيديهم وهم ذاهبون بك الى النار مسوّد وجهك تتخطى الخلائق بسواد وجهك و كتابك في شمالك تنادي بالويل والثبور ، والملك آخذ بضبعيك ينادي : هذا فلان بن فلان شقى شقاء لايسعد بعده أبداً .

لقد شَهَرك بالغضب والسخط عليك ، ولقد تمت فضيحتك عند خلقه ، فأخلف حسن ظن الظانين بك ، وحقّق تهم المتهمين لك ، ولعله إن فعل ذلك بك فعله بتصنعك لطاعته عند عباده بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه عنده ، ففضحك عند من آثرته عليه في المعاملة ، ورضيت بحمده على طاعة ربك عز وجل عوضاً من حمده إياك تبارك وتعالى . فتوهم ذلك ثم توهمه واذكر هذا الخطر ، و كن مفكراً حذراً أي الأمرين يرتفع بك وأي الأمرين قد أعدّ لك .

عن كعب قال : إن الرجل ليؤمر به الى النار فيبتدره مائة ألف ملك .

قال أبو عبد الله : وقد بلغني أنه إذا وقف العبد بين يدي الله عز وجل فطـــال وقوفه ، تقول الملائكة مالك من عبد عليك لعنة الله أبكلّ هذا بارزت الله عز وجل وقد كنتَ تظهر في الدنيا علانية حسنة ؟

قال أبو عبد الله : ولقد بلغني أيضاً أنه إذا حوسب فوبخ بكثرة أعماله الخبيثة ، تقول الملائكة : مالك من آدمي عليك لعنة الله ، أبكل هذا بارزت الله عز وجل ، وقد كنت تظهر الحسن في الدنيا ؟ قال : من تحبّب الى الناس بما لايحب الله عز وجل وبارز الله عز وجل بما يكره لقي الله عز وجل وهو عليه ساخط وله ماقت[1]» .

٩ – رقابة الله

إن رحلة الحياة واحدة تبدأ من الميلاد . وتمر بالموت وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ، ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لافكاك عنه ولا محيد ، وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لايتملص ولا يفلت ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تمـــلأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ (يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور) وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لاينسى ولا يغفل ولا ينام (لاتأخذه سنة ولا نوم) إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يَتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه في حركته وسكونه ، وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لايراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمي منه إذا أوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أمـــا في قبضة الجبار فهي مُسَلّطة عليه أينما حلّ وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار . فكيف بهذا الانسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم)

---

(١) التوهم : ١٨ – ٢٦ .

فالله يعلم مابين أيدي الناس وما خلفهم ، وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولهم فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم وما خلفهم .. من شأنه أن يحدث في النفس رجّة وهزة . النفس التي تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديهـــا وما خلفها . يعلم ما تضمر . علمه بما تجهر ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل . ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت مما لا تعلمه هي ولا تدريه ، شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزة ، الذي يقف عرياناً بكل مافي سريرته أمام الديان ، كما أنه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه . وشعور المؤمن بأن عين الله – سبحانه – على نيتـه وضميره – وعلى حركته وعمله ، يثير في حسه مشاعر حية متنوعة . شعور التقوى والتحرج أن يهجس في خاطره هاجس رياء أو تظـاهر ، وهاجس شح أو بخل ، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن . وشعور الاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء . وشعور الرضى والراحة بما وفّـى الله وقام بشكر نعمته عليه .

إنها لمسات للقلوب .. واشعاراً أن عين الله عليها ، وأن علم الله يتابعهـا ، وهو امعان في التحذير والتهديد واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة فلا ملجـأ من الله ولا نصرة ! (قل إن تخفوا ما صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم مافي السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير) . (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) .

إن هذا التوكيد يتفق مع وحدانية الألوهية والقوامة ، فلن يفلت شيء من علم الله في الأرض ولا في السماء ، بهذا الشمول والاطلاق ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه . ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق . فالله حاضر . الله شاهد . يا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به . والسرائر مكشوفة فيه لله . وهو يسمع ما تقول الألسنة ويعلم ما تهجس به الضمائر (والله سميع عليم) فهـو سبحانه يسمع منطق الألسنة ، ويعـــلم مكنون القلوب وذات الصدور (والله عليم بذات الصدور) .

وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها . التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هـذه . إنه العلم الإلهي المحيط بكل شيء المطلع على سر الانسان وعلانيته . وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، (يعلم مافي السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته ، ويمنحه جانباً من التصور الايماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ، فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

إنه علم الله الشامل الكامل الذي لا تخفى عليه خافية في السماء وفي الأرض ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . (وإن ربك ليعلم ما تُكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) . إنه الله يعلم المشاعر الخافية ، والخواطر الكامنة ، والأسرار الدفينة . وهي على خفائها وكتمانها مكشوفة لعلم الله المطلع على ذات الصدور ، (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) .

إنها رقابة الله تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . رقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف اطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً . ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نفس معدود ، وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب ، وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي

مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هـذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . في كل وقت وفي كل حال .

إن هذه المراقبة تروع النفس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب . إن الله معه ، ناظراً اليه ، مطلعاً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جَدّ قريب ، (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) ، وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله سبحانه مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت وفي كل مكان ، مطلع على مايعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ،ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض، كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل اسفاف.

إن هذا الأمر يقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخواجله ونجواه . وهو يعلم أنه لا مهرب من الله إلا اليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه.

ويشير القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ويطلع على سره ونجواه . إنها التربية ، التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة والتطلع والحذر والانتظار .

ما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذي يعلم ما خلق ،وهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ، لافي ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب ، (إن الله كان عليكم رقيباً)،(وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) فهو سبحانه لايخفى عليه شيء،ولا شيء مما يخفونه في صدورهم ،وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر ، وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم . فهو المطلع على السرائر،

المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذي لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

هذه اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر في هذه الآيات تشعر بمراقبة الله . إنه شعور مطمئن ومخيف معاً ، مؤنس ومرهب معاً ، وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيبته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته ، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . الله مع هذا المخلوق البشري . إن القلوب ترتجف حين تتدبر ذلك وتتصور . يا لها من رهبة غامرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله سبحانه ، وإحاطة علمه وقهره (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور) .

إن الله سبحانه يصور الوضع الخفي الدقيق من أوضاعهم ، حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر يعلم في هذه الخلوة ما يُسرون وما يعلنون .. والله يعلم ماهو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الانسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالقرآن يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها فيخيل اليه أن ليس هناك من عين تراه : والله عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها والتي تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه : فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور ومع ذلك فالله عليم بها .. وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة أو سكنة تذهب أو تضيع (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) .

إن الله يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية . فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . فالله مع الانسان يسمعه ويراه (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وهو سبحانه رقيب على كل نفس مسيطر عليها في كل حال عالم بما كسبت في السر والجهر (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) . إنها الرقابة والسيطرة والعلم : صورة ترتعد لها الفرائص . فلنتصور كل نفس ، مسيطر عليها في كل حال ، عالم بما كسبت في السر والجهر .. فلنتصور كل نفس أن عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مراقباً محاسباً بما كسبت . ومن ؟ إنه الله ! فأية نفس لاترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق . إن الله قائم على كل نفس بما كسبت . لاتفلت منه ولا تروغ ، فالله هو الذي خلق النفوس ويعلم مداخلها ومكامنها التي أودعها إياها (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .. وأسروا او اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما أخفى من الجهر والسر . إنه عليم بذات الصدور . التي لم تفارق الصدور ! عليم بها . فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور . ألا يعلم وهو الذي خلق .. الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور . إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير ، يبدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله وهو يعلم دروبه وخباياه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ؟ وأين يخفون ؟

والقرآن يُعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير لأن استقرارها فيه ينشىء له إدراكاً صحيحاً للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تُناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية .. وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذي يعلمه الله وهو اللطيف الخبير . عندئذ يتقي المؤمن النية

المكنونة ، والهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة والصوت الجهير . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر . الله الذي خلق الصدور فهو يعلم مافي الصدور .

١٠ – تسجيل واحصاء دقيق

إن الله هو المنشىء الموجد الخالق . إنّ الانسان خارج من يد الله أصلاً ، فهو مكشوف الكُنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره .. (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ..) وهكذا يجد الانسان نفسه مكشوفة لايحجبها ستر ، وكل مافيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده . (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . الوريد الذي يجري في دمـــه وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الانسان هذه الحقيقة لابد أن يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ماجرؤ على كلمة لايرضى الله عنها . بل ماجرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال بالقبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الانسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لاتغفل عن المحاسبة . ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة . فاذا الانسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطـــع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به . عن اليمين وعن الشمال يلتقيان منه على كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها .. (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وحسبنا أن نعيش في هذه الحقيقة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة ، وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنـــا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير . والذين انتفعوا بهـــذا

القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بحقائق القرآن ، كان سبيلهم أن يشعروا وأن يعملوا وفق ما يشعروا .

قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية : عن بلال ابن الحارث المزني رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) ،قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث [1] .

وحكي عن الامام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يُكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه . وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها عن يقين .

فكل نفس عليها من أمر الله رقيب ، (إن كل نفس لما عليها حافظ) وما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ، ويحصي عليها ، ويحفظ عنها . وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار وهي التي يناط بها العمل والجزاء .

ليست هناك فوضى إذن ولا هيصة ، والناس ليسوا مطلقين في الارض هكذا بلا حارس ، ولا مهملين في شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاؤوا بلا رقيب ، إنما هو الاحصاء الدقيق المباشر والحساب المبني على هذا الاحصاء الدقيق المباشر . ويلقي النص ايحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً في خلوة — وإن خلت — فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق ، هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو وبه وقال الترمذي : حسن صحيح .

فالله سبحانه صاحب السلطان القاهر ، وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السلطان ، لاقوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم. وهم خاضعون له مقهورون (وهو القاهر فوق عباده . ويرسل عليكم حفظة) وهـــذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس ، مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة ، إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ، وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة .

وظل الرقابة المباشرة على كل نفس (ويرسل عليكم حفظة) ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نأمة ، ويحفظ ما يصدر عنها لا يندّ عنه شيء . وهـــذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري . وتستيقظ فيه كل خالجة ، وكل جارحة وإن علة الغرور ، وعلة التقصير ، هو التكذيب بالحساب والمؤاخذة والجزاء (كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) .

فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف . فتطيع ربها وتعبده حباً فيه ، لا خوفاً من عقابه ، ولا طمعاً في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع اليه ، لتلقى ربها الذي تحبه وتشتاق للقاءه وتتطلع اليه . فأما حين يكذب الانسان تكذيباً بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير ، تكذبون بيوم الدين ، وأنتم صائرون إليه ، وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لايضيع منه شيء ، ولا ينسى منه شيء . وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالانسان — من الملائكة — التي ترافقه ، وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه — ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وإن عليه حفظة كراماً كاتبين يعلمون مايفعله ،

ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود ، والله يذكر أن من صفة الحافظين كونهم « كراماً » ليستجيش في القلوب احساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام. فإن الانسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف ، فكيف به حين يشعر أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة كرام لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كريم من الخصال والفعال ؟

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر باقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الادراك المألوف ، ومن ثم يقرر الله تفرده بالأمر في ذلك اليوم العصيب ليحاسب الانسان على ما قد سجل عليه الحفظة وعلى ما اطلع الله به عليه . (وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

والنفس في ذلك اليوم في العجز الشامل . وهو الشلل الكامل ، والأمر يومئذ لله ، يتفرد به سبحانه ، وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة ولكن في هذا اليوم — يوم الدين تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون .

إن المؤمن حين يشعر برقابة الله يعيش قلبه في حساسية مرهفة ، وتوفز دائم ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً بقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال ، شاعراً برقابة الله التي لا يغيب عنها شيئاً (إنه يعلم الجهر وما يخفى) .. (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) .. (عالم الغيب والشهادة) .

ويستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ويعمل الانسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله ،

المراقب لله . الذي لا يعيش وحده ، ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام . وكيف يغفل الانسان وينام والله بالمرصاد (إن ربك لبالمرصاد) يرى ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطىء ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور ولكن بحقائق الأشياء ، وإن رقابة الله لا تدع النفس الانسانية لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في هذه القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً أو قليلاً . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة ، وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب . كما هي مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة في كل وقت وفي كل حال .

١١ – الصراط

يقول الله سبحانه (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب فهم يَرِدُون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتلمظ ، ويرون العناة يُنزعون ويقذفون .

عن قيس – هو ابن أبي حازم – قال : كان عند عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته ، فبكى ، فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) ولا أدري أأنجو منها أم لا ؟ [1]) .

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما .

ولو لم يكن بين يدي الانسان إلا هول الصراط لكفاه هولاً وفزعاً ورعباً . حيث لا يسأل أحد أحداً .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرتُ النار فبكيت فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قلت : ذكرتُ النار ، فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاثة مواطن ، فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز[1]) . .

عن أنس رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل إن شاء الله تعالى ، قلتُ فأين أطلبك ؟ قال : أول ماتطلبني على الصراط قلت : فإن لم ألقك على الصراط قال : فاطلبني عند الميزان : قلت فان لم ألقك عند الميزان ، قال : فاطلبني عند الحوض ، فإنني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن[2]) . وعلى الصراط الكلاليب والخطاطيف تخطف الناس إلى جهنم . قال رسول الله ﷺ « يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ سَلِم سَلِّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[3] هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم : قال : فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق[4] بعمله ومنهم من يخردل[5] ثم ينجو[6]) .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وهو حديث حسن له شواهد ، يشهد له الحديث الذي بعده .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

(٣) شوك السعدان : شوك ترعاه الابل .

(٤) يسقط .

(٥) يخردل : يخدش .

(٦) البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يَمُر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سَلِّم سَلِّم . فمن الناس من يمرُّ مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجرى ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون . وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيموتون فيكونون فحماً ثم يؤذن في الشفاعة[1] » .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة ربِّ سلم سلم[2] » .

عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ (يجمع الله الناس ــ فذكرا الحديث إلى أن قالا ــ فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم ويؤذن له وترسل معه الأمانة والرحم ، فيقوم جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمرُّ أولكم كالبرق ، قال: قلت بأبي أنت وأمي . أيُّ شيء كمرِّ البرق ؟ قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ، ثم كمرِّ الريح ، ثم كمرِّ الطير وشدِّ الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول : ربِّ سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أُمرت به فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفاً[3]) .

حيث تخطف كلاليب جهنم المجرمين (هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن بشواهده .

(٣) رواه مسلم .

إنه موقف يؤذي . ثم مشهد عجيب ، تشهد عليهم جوارحهم ، .وتتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً يكذب بعضها بعضاً .-وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى ربه مستسلماً . إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب. الألسنة معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون .

مشهدهم عميان مطموسين ، ثم هم مع العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ويتساقطون تساقط العميان حين يسرعون متنافسين (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون) ، ثم مشهدهم قد جمدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعود ، بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) وإنهـــم ليبدون كالدمى واللعب في حال تثير السخرية والهزء .

أما المؤمنون فتُزحزح عنهم النار وينجون (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) .

إنه تكريم عظيم أن يضم الله المؤمنين إلى النبي ﷺ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي ثم يجعل لهم نوراً ، نوراً يُعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونوراً يهتدون به في الزحام المريج ، ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف .

هؤلاء المؤمنون ، نراهم ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشعُّ منهم ويفيض بين أيديهـــم . فهذه الشخوص الانسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعّت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . (يوم ترى

المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .. ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه الى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم) . وهم في رهبة الموقف وشدته يُلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قَدره بأنه يستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمنُّ بها الله عليهم تضاف إلى منّة الله بالتكريم وبالنور وبالنجاة من العذاب .

عن أم مبشّر الأنصارية رضي الله عنها : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة : (لا يدخل النار إن شـــاء الله من أهل الشجرة أحد والذين بايعوا تحتها) قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة (وإن منكم إلا واردها) فقال النبي ﷺ قد قال الله تعالى (ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا[1]) .

إنها نعمة النجاة من بعد الورود على جهنم ، نعمة النجاة . فالناس سيقوا إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدُّ من السيف وأدق من الشعر . فمن استقام خفَّ على الصراط ونجا ، ومن ابتعد عن الاستقامة وأثقل على ظهره الذنوب وعصى تعثر على الصراط وسقط .

يقول الامام الحارث المحاسبي[2] (.. فتوهم ما حلَّ من الوجل بفؤادك حين رفعتَ طرفك فنظرت اليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه ، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته ، فيـاله من منظر ما أفظعه وأهوله ، وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر الى سواد جهنم من تحته ، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها ، والملائكة تنادي : ربنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادي : ربنا ربنا سلِّم سلِّم ؛

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) التوهم ٢٧ ـ ٢٩ .

فبينا أنت تنظر اليه بفظاعة منظره ، قيل لك وقيل للخلق معك : اركبوا الجسر . فتوهم خفقان فؤادك وفزعه ، وقد قيل لك اركب الجسر ، فطار عقلك رعباً وفزعاً ، ثم رفعت أحد قدميك لتركبه فوجدت بباطن قدميك حدته ودقته فطار قلبك فزعاً ، ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكباً وقد أثقلتك أوزارك وأنت حاملها على ظهرك ، وتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك ؛ فتوهم صعودك بضعفك عليه ، وقد نظرت إلى الزالين والزالات من بين يديك ومن خلفك وقد تنكست هاماتهم وارتفعت على الصراط أرجلهم ، وثارت النار بطلبتها وفارت وشهقت على هاماتهم ، ورمتهم الملائكة بالكلاليب فجدبتهم وثارت اليهم النار بطلبتها وحريقها ، وزفرت وشهقت على هاماتهم وبادرت شرر النار الى هاماتهم فتناولتها ثم جذبت هاماتهم الى جوفها ، وهم ينادون ويصرخون وقد أيسوا من أنفسهم ، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون ، وأنت تنظر اليهم مرعوباً خائفاً أن تتبعهم فتزل قدمك فتهوي من الجسر وتنكسر قامتك وترتفع على الصراط رجلاك .

فتوهم ذلك بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك تخفف في الدنيا للمرور عليه ، فان أهوال القيامة إنما تخفف على أولياء الله عز وجل الذين توهموها في الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم ، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على ضرورتهم فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم ، فألزم قلبك توهمها والخوف منها والغم بها لأن الله يخففها عليك بذلك ويهونها لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة .

فتوهم ممرك على الجسر بشدة الخوف وضعف البدن ، وان يكن مغضوباً عليك غير معفي عنك ، ولم تشعر إلا وقد زلّت قدمك عن الصراط ، فتوهم نفسك إن لم يعف عنك أن زلت رجلك عن الصراط فقلت في نفسك مع ذلك ذهبت أبدا . هذا الذي كنت أحاذر وأخاف ، وطار عقلك ، ثم زلّت الأخرى فتنكست هامتك ، وارتفعت عن الصراط رجلاك فلم تشعر إلا والكلّوب قد دخل في جلدك ولحمك ،

فجذبت به وبادرت اليك النار ثائرة غضبانة لغضب مولاها ، فهي تجذبك وأنت تهوي من الجسر وتنادي حين وجدتَ مسَّ نفحها : ويلي ويلي ، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف إلا كنت أرضيتَ الله عز وجل ، فرضي عنك وأقلعت عما يكره قبل أن تموت ، فغفر لك ، حتى إذا صرت في جوفها التحمت عليك بحريقها ، وقلبك قد بلغ غاية حرقته ومضيضه ، فتورمت في أول ما ألقيت فيها ، ونادى الله عز وجل النـــار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور ، فناداها : هل امتلأت ؟ فسمعتَ نداءه وسمعتَ إجابتها له : هل من مزيد ؟ يقول : هل من سعة وأنت في قعرها ، وهي تتلهب في بدنك . لها قصيف في جسدك ثم لم تلبث أن تقطّر بدنك وتساقط لحمك وبقيت عظامك ، ثمّ أطلقت النار على ما في جوفك فأكلتْ ما فيه ، فتوهم كبدك والنار تداخل فيها وأنت تنادي فلا تُرحم وتبكي وتعطي الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال (هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس دونه سحاب ؟) قالوا : لا يا رسول الله ، قال : (هل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟) قالوا لا ، قال : (فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهـــم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفنـــاه ، فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيدعوهم ، ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، لا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[1] ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها

---

(١) السعدان : نبت ذو شوك معقف .

إلا الله ، تخطف النـاس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق[1] بعمله ، ومنهم من يخردل[2] ، ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يُخرِجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم بآثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[3] ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قِبلَ النـار ، فيقول : يا ربِّ اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها[4] وأحرقني ذكاها[5] فيقول : هل عسيتَ أن أفعل أن تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكتَ ما شاء الله أن يسكت ، ثم قال : يا رب قدِّمني عند باب الجنة ، فيقول الله : أليسَ قد أعطيت العهد والميثـاق أن لا تسأل غير الذي كنت قد سألت ؟ فيقول : يا ربِّ لا أكون أشقى خلقك . فيقول : ما عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غير هذا ، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه الى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فسكت ما شاء الله أن يسكت ، فيقول : يا رب أدخلني الجنة ، فيقول الله : ويحك يا ابن آدم ماأغدرك! أليس قد أعطيتني العهود أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ، ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنَّ ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيتـه ، قال الله : تمنَّ من كذا وكذا يُذَكره ربه ، حتى إذا انتهت به الأماني قال الله : لك ذلك ومثله معه[6]) .

---

(١) يوبق : يهلك .

(٢) المخردل : المرمي المصروع : والمعنى أنه تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار .

(٣) امتحش : احترق .

(٤) قشبني ريحها : اي آذاني .

(٥) ذكاها : اشعالها ولهبها .

(٦) رواه البخاري .

١٢ – الشفاعة

يقول الله سبحانه (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) ويقول تبارك أسماؤه (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذِنَ له الرحمن ورضي له قولا) .

إن الشفاعة هي مظهر من مظاهر الرحمة الالهية التي يغمر بها الله سبحانه العصاة والمذنبين من خلقه ، وهي كذلك مكرمة لرسوله ﷺ في أن يشفع لأمته .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل نبي سأل سؤالاً – أو قال : لكل نبي دعوة قد دعاها لأمته – وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي[1] .

ولمسلم قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة) .

وعن عبـــد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى وانصرف اليهم ، فقال لهم : (لقد أُعطيت الليلة خمساً ما أُعطيهن أحد قبلي : أما أنا فأُرسِلتُ إلى الناس كلهم عامة ، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونُصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر لملىء منه ، وأُحلت لي الغنائم أكلها ، وكان من قبلي يُعظمون أكلها ، وكانوا يحرقونها ، وجُعلت لي الأرض مساجد وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيَعِهم، والخامسة هي ما هي قيل لي : سَل ، فان كل نبي قد سأل ، فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله[2]) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (خُيرت بين الشفاعة أو

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد باسناد صحيح .

يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أما إنها ليست للمؤمنين المتقدمين ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين[1]) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال : (لكل نبي دعوة مستجابة فَتَعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) .

وفي رواية أن أبا هريرة قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال : لكل نبي دعوة يدعوها فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم[3]) .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتاني آتٍ من عند ربي ، فخيرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً[4]) .

وشواهد الشفاعة كثيرة يقول الله سبحانه (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، ويقول عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . والمقام المحمود الذي وعدالله عز وجل رسوله به إنما هو تلك المنزلة العظيمة التي تخوله في أن يشفع لأهل المحشر وفي أمته خاصة .

عن أنس رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ قال : (إني لقائم انتظر

---

(١) رواه أحمد والطبراني ، واللفظ له ، واسناده جيد .

(٢) رواه ابو داود والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٤) أخرجه الترمذي واسناده حسن .

أمتي تعبر إذ جاء عيسى عليه السلام قال : فقال هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون ـ أو قال : يجتمعون اليك يدعون ـ الله أن يَفرُق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء لعِظَم ما هم فيه ، فالخلق ملجمون في العرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، قال : يا عيسى انتظر حتى أرجع اليك ، قال : وذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن اذهب إلى محمد فقل له : ارفع رأسك سل تُعطه واشفع تُشفع ، قال : فشفعت في أُمتي أن أُخرج من كل تسعة وتسعين انساناً واحداً ، قال : فما زلت أتردد على ربي ، فلا أقوم فيه مقاماً إلا شفعت ، حتى أعطاني الله من ذلك أن قال : أدخل من أُمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك [1]) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم ، فصلى الغداة ثم جلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ وجلس مكانه حتى صلى الأولى ، والعصر والمغرب ، كل ذلك لا يتكلم ، حتى صلى العشاء الآخرة ، ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبي بكر رضي الله عنه : سل رسول الله ﷺ ما شأنه ؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط ، فقال : (نعم ، عُرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة ، فجُمع الأولون والآخرون بصعيد واحد حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ، والعرق يكاد يلجمهم ، فقالوا : يا آدم ، أنت أبو البشر اصطفاك الله ، اشفع لنا إلى ربك ، فقال : قد لقيت مثل الذي لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) فينطلقون إلى نوح عليه السلام ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله ، واستجاب لك في دعائك فلم يدع (على الأرض من الكافرين ديّاراً) فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى

---

(١) رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح .

ابراهيم ، فان الله اتخذه خليلاً ، فينطلقون إلى ابراهيم عليه السلام فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى موسى فان الله كلّمه تكليماً ، فينطلقون إلى موسى عليه السلام ، فيقول : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ، فانه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فيقول : عيسى : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، فانه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، انطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم ، قال : فينطلقون إليّ ، وآتي جبريل ، فيأتي جبريل ربه فيقول له : ائذن له وبشّره بالجنة ، قال : فينطلق به جبريل فيخرّ ساجداً قدر جمُعة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع واشفع تُشفع ، فيذهب ليقع ساجداً ، فيأخذ جبريل بضبعيه ، ويفتح الله عليه من الدعاء ما لم يفتح على بشر قط ، فيقول : أي ربّ جعلتني سيّد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشقّ عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه ليردُ عليّ الحوض أكثر ما بين صنعاء وأيْلة ، ثم يقال : ادعوا الصدّيقين ، فيشفعون ، ثم يقال ادعوا الأنبياء ، فيجيء النبي معه العصابة ، والنبي معه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد ، ثم يقال : ادعوا الشهداء ، فيشفعون فيمن أرادوا ، فاذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله جلّ وعلا : أنا أرحم الراحمين أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا ، فيدخلون الجنة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : انظروا في النار هل فيها أحد عمِلَ خيراً قط ؟ فيجدون في النار رجلاً ، فيقال له : هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أني كنت أسامح الناس في البيع ، فيقول الله : اسمحوا لعبدي كإسماحه لعبيدي ، ثم يُخرج من النار آخر ، فيقال له : هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أني كنت أمرتُ ولدي إذا متُّ فاحرقوني بالنار ثم اطحنوني حتى إذا كنت مثل الكحل إذهبوا بي الى البحر فذرُّوني في الريح ، فقال الله ، لِمَ فعلتَ ذلك ؟ قال : من مخافتك ، فيقول : انظر الى مُلك أعظم مَلك فإن لك مثله

وعشرة أمثاله ، فيقول : لِمَ تسخر بي وأنت الملك ؟ فذلك الذي ضحكتُ منه من الضُحى[1]) .

إنها الشفاعة العظمى للنبي ﷺ عند الله تبارك وتعالى ليريح الناس يوم القيامة من عظيم ما هم فيه من شدة وهول ذلك اليوم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع – وكانت تعجبه – فنهس منها نهسة وقال : أنا سيّد الناس يوم القيامة ، هل تدرون ممّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويُسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا تنظرون إلى ما أنتم فيه ، وإلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أوّل الرسل الى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكورا ، ألا ترى الى ما نحن فيه ، ألا ترى الى ما بلغنا ، ألا تشفع لنا الى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كان لي دعوة دعوتُ بها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون : أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني كنتُ كذبتُ ثلاث

---

(١) رواه أحمد والبزار وابو يعلى وابن حبان في صحيحه وقال : قال اسحاق – يعني ابن براهيم – هذا من أشرف الحديث .

كذبات ، فذكرها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ، فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضّلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، أما ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلتُ نفساً لم أُؤمر بقتلها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلّمتَ الناس في المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ، نفسي نفسي نفسي . اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتوني ، فيقولون يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ من محامده وحُسْنِ الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سَلْ تُعطه ، واشفع تُشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخِل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب) ثم قال (والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجر ، أو كما بين مكة وبصرى[1]) .

كما تتمثل الرحمة الالهية في شفاعة المؤمنين لغيرهم : عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيّين ربيعة ومُضر) فقال رجل يا رسول الله ، أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : (إنما أقول ما أقول[2]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد باسناد جيد .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة [1]) .

ورحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء تجلت فيما تجلت بالنبي ﷺ حين أرسله الله لانقاذ الناس من الظلمات إلى النور (وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين) : روى عبد الله بن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ تلا قول ابراهيم عليه السلام – (ربِّ إنَّهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى عليه السلام . (إن تعذبهم فانهم عبادك) ثم رفع يديه وقال : أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل ياجبريل اذهب إلى محمد فَسَلْهُ مايُبكيك فأتاه جبريل فأخبره والله أعلم به ،فقال ياجبريل اذهب الى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك [2])

ومن مكرمة الله أن يكون محمداً ﷺ هو الذي يستفتح الجنة :

عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ :(يجمع الله تبارك وتعالى الناس ،قال: فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني ابراهيم خليل الله ، قال : فيقول ابراهيم : لستُ بصاحب ذلك ، إنما كنتُ خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليما ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا الى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لستُ بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق قال : قلت : بأبي وأمي أي شيء كالبرق ؟قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط

---

(١) رواه البزار ورواته رواة الصحيح .

(٢) رواه مسلم .

يقول : ربّ سلّم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جنهم لسبعين خريفاً[1])

١٣ ـ الحوض

واعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وهو من مظاهر اكرام الله تعالى له ورحمة بعباده ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقـــه ، فان من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً :

عن أنس رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً ، قلنا ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أُنزلت عليّ آنفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) ، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : فانه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض[2] ترد عليه أُمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول رب إنه من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك[3] .

وفي وصفه بيّن الرسول ﷺ بياناً جميلاً :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ان ماء الحوض والكوثر شيء واحد كما نص على ذلك هذا الحديث ، وان اصله في الجنة، فما كان جاريا منه في داخلها فهو ماء الكوثر وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض الذي يرده المؤمنون .

(٣) رواه مسلم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبداً [1]) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله قد وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب) فقال يزيد بن الأخنس : والله ماأولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذباب ، فقال رسول الله ﷺ (قد وعدني سبعين ألفاً مع كل سبعين ألفاً وزاد في ثلاث حثيات) ، قال : فما سعة حوضك يا نبي الله ! قال : كما بين عدن إلى عمان ، وأوسع وأوسع) يشير بيده ، قال : (فيه مثعبان [2] من ذهب وفضة) ، قال : فما حوضك يا نبي الله ؟ قال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، ولم يسود وجهه أبداً [3]) .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إني ليعُقْر [4] حوضي أذود الناس [5] لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض [6] عليهم) فسئل عن عرضه فقال : (من مقامي إلى عمان) وسئل عن شرابه . فقال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يغث [7] فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق [8])

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) المثعب : وهو مسيل الماء .

(٣) رواه أحمد ، ورواته محتج بهم في الصحيح وابن حبان في صحيحه

(٤) عقر الحوض : مؤخره .

(٥) أذود الناس لاهل اليمن : أي ادفعهم لترد أهل اليمن .

(٦) يرفض : أي يسيل ويترشش .

(٧) يغث فيه ميزابان : أي يجريان فيه جريا له صوت .

(٨) رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما بين جنبتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة) وفي رواية (ما بين المدينة وعمّان) . وفي رواية (تُرى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء) وفي رواية (أو أكثر من عدد نجوم السماء[1]) .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشخب[2] فيه ميزابان من الجنة ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمّان الى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل[3]) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (حوضي كما بين عدن وعمّان ، أبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، أكوابه مثل نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً . أول الناس عليه وروداً صعاليك المهاجرين) قال قائل : من هم يا رسول الله ؟ قال : (الشّعثة رؤوسهم ، الشحبة[4] وجوههم ، الدنسة ثيابهم ، لا تُفتّح لهم السُّدد[5] ، ولا ينكحون المنعّمات ، الذين يعطون كل الذي عليهم ، ولا يأخذون كل الذي لهم[6]) .

ولا يُحرم من ورود حوض النبي ﷺ إلا من عصى وارتد وبدّل من دين الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ليَردُ عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال من أمتي ـ فيحلؤون عن الحوض ، فأقول : يا ربّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) يشخب : سال وجرى .

(٣) اخرجه مسلم والترمذي .

(٤) الشحبة وجوههم : من الشحوب ، وهو تغير الوجه من جوع او هزال او تعب .

(٥) اي لا تفتح لهم الابواب .

(٦) رواه احمد باسناد حسن .

أصحابي ، فيقول: إنه لاعلم لك بما أحدثوا بعدك، انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى[1]) .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : (ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، ترِدون غراً محجلين من آثار الوضوء وليصدّن عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يا رب ، هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج الى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت اخواننا ، فقلنا : يا رسول الله ألسنا باخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، واخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض ، فقالوا يا رسول الله : كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غير محجلة في خيل دُهم بُهم ، ألا يعرف خيله؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فانهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض . فلا يذدان رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلم ، ألا هلم ، فيقال: انهم قد بدّلوا بعدك . فأقول: فسُحقاً ، فسحقاً فسحقاً[2]) .

عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان ابن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : فانهم مني ، فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي[3]) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم ومالك في الموطأ

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إليّ رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم أُختلجوا[1] دوني ، فأقول : أي ربّ ، أصحابي ، فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك[2]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال لهم : هلمّ ، فقلتُ إلى أين ؟ قال : الى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمّ قلتُ : الى أين ؟ قال : الى النار والله ، قلت : ما شأنهم قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثلُ همَل[3] النعم[4]) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهراني أصحابه : (إني على الحوض أنظر من يَردُ عليّ منكم فوالله ليقتطعن دوني رجال ، فلأقولن : أي ربّ من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم[5]) .

* * *

(١) اختلجوا : استلبوا ، واخذوا بسرعة .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) همل النعم : ضوالها ، ومعناه أن الناجي قليل كضالة النعم بالنسبة الى جملتها .

(٤) اخرجه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم .